



من
تحت
من
تحت
من
تحت

قصص
الكاتب:
د. محمد خضر عواد

إهداء

إلى عائلتي التي كانت وما زالت معي بالرغم من عثراتي وتخبّطاتي وأخطائي التي لا يغفرها إلا كريم الروح أو ذاك العاشق الذي أحبّ من دون مقابل.

إلى كلّ من صادفتهم في حياتي، فكنت أرى فيهم مدرسة الحياة كالبحر الذي أتحرك مع أمواجه التي لا تهدأ، ومع ذلك أحببت الغوص فيه.

إلى كلّ من لم يستطيع أن يرى نفسه من الداخل، فكان يبحث عن إجابات لأسئلته، وفي هذا الكتاب أتمنى للحظة أن يحصل على بعض الإجابات التي يلمس فيها أبعادَ روحه وشخصيّته.

إلى أستاذي أسد حيدر الذي رأى هذا العمل النور بوجوده، ذاك المعلم الذي عطاءه لا يتوقف إذ يحمل على عاتقه رسالةً ساميةً، فقط النادرون من المعلمين يمتلكونها.

إلى صديق الطفولة آرام صقر، ذاك الشاب الثابت الذي لم تمنعه بعد المسافة من أن يضع لمساته المميزة والجميلة في حياتي وفي هذا الكتاب.

تدقيق لغوي: الأستاذ أسد حيدر

تصميم الغلاف: آرام صقر

مقدمة:

مضمونُ هذا الكتاب، قصصٌ خياليةٌ فلسفية، وأفكارٌ تُعتبرُ محاولةً طويلةً
للاتِّلاقِ من نَفسي... ومن ثمَّ فَهَمِ الأخرين.

مواجهة

هذه المرّة الأخيرة التي سأعودُ فيها بالزّمن، وسأقتلُ نفسي التي ما تزالُ تعيشُ في تلكِ الفترةِ الشّبيعة، التي لم أستطعُ نسيانها، وتحوّلتُ لصدمةٍ لم تتركني أكملُ حياتي مُرتاحًا، هذه النّفْسُ الحقيرةُ المؤذية، ليسَ لديها ضميرٌ، ولا تملكُ سيوئ السّوادِ والغباءِ الضّخم... للأسفِ هكذا كنتُ أنا. حتّى اليومِ وفي كلّ لحظةٍ أقفُ فيها أمامَ المرآة، أتذكّرُ ما كُنْتُ عليه وما فعلتُ حتّى وصلَ بي الحالُ إلى هنا!، حيثُ اضطررتُ في إحدى الليالي أن أُحرقَ هذا الوجهَ البشعَ المجرمَ والمذنبَ، متمنيًا نسيانَ ملامحي تلكِ. لقد سافرتُ عودةً بالزّمنِ مرّتينِ سابقتين، وحاولتُ قتلَ نفسي من بعيدٍ، محاولاً ألا يلاحظني هذا البغيضُ، لكنّ لم أنجح، في حين أنّ الأمرَ اختلفَ اليوم، فقد تغيّرَ شكلي، وسأواجهُ هذا المجرمَ وأخبرُهُ بما أعرّفُهُ عنه، وأنا أنظرُ مباشرةً إلى عينيه البشعَتين، اللّتين لا تريان إلا الجعدَ والسّوادَ، ومن ثمّ سأستلُّ سكينتي و أطعنه بكلِّ قسوةٍ حتى يموت، وسأستمعُ بمشاهدتيه يتألّم، وأتلدّدُ بسماعِ صوتهِ يستغيثُ، وأراقبه مُلقًى على الأرضِ ينزفُ وسطَ بيتهِ المُقرَفِ الذي يسترُهُ ويستترُ روحهُ القذرة. أتتُ هذه اللّحظةُ وعبرتُ بوابةَ الزّمنِ، وها أنا أطرقُ بابَ هذا المحتالِ الذي أكرههُ وأشفقُ عليه، وكلُّ مجيئي إلى هنا كانَ بنيةِ التّخلّصِ منه وقتلِهِ.

لقد طرقتُ البابَ، وها هو يصرُخُ من الدّاخل: من الطّارق؟ أنا: افتح لي من فضلك، أريدُ أن أحدثكُ بموضوعٍ مهمّ. فتح البابَ بعدَ أن كانَ قد أفضلهُ من الدّاخلِ ثمّ أخرجَ وجهه، كانَ شعْرُ لحيتهِ طويلاً ويبدو عليه أنّ له أسابيعَ لم يستجم، ثمّ نظرَ لي بنظرةٍ من العجبِ وقال: من أنت؟ وماذا تريدُ مني الآن؟

أنا: إسمح لي بالدّخولِ، سأحدثكُ بشيءٍ يهّمكُ. هو، وفي عيونه الخوفُ يقول: لماذا سأسمحُ لك بالدّخولِ، مع أنّي لا أعرّفك؟!

أنا: لأنني أعرف كل ما اقترفت يداك، وسأخبر الشرطة بكل شيء إذا لم تسمح لي بذلك.

سكت وكتب مشاعره وكأنه فكر بإدخالي حتى يغدر بي: حسناً تفضل.
دخلت إلى بيته، وكانت رائحة دخان السجائر تملؤه، يبدو أن له قرناً لم ينظف أو يرتب، كما توقعت، منذ دخولي ذهب مسرعاً ثم أحضر سكينته وقال لي بنبرة سريعة خائفة: من أنت؟! وماذا تريد مني؟!
أجبتُه بسرعة ومن دون تفكير: أنا الذي حاول قتلك في المرتين السابقتين.
عندها ظهر عليه الغضب والرعب: لماذا تريد قتلي؟!
أنا: سأخبرك من أنا، سكت قليلاً ونظرت إليه، ثم أكملت حديثي بعدها: أنا هو أنت، ولكنني أتيتك من المستقبل، بعد عشرين سنة من يومنا الحالي، كل ما أريده هو قتلك، لأنك مجرمٌ دمّرت حياتي، ولم أستطع أن أغفر لك. رمي سكينته على الأرض ونظر إلي، ثم احمرّت عيونه وبدأ يبكي بحرقة كالأطفال قائلًا: هذا هو مستقبلي بعد عشرين عامًا!، مشوه الوجه بائس، حاقدٌ على نفسي وأحاول قتلها.

اقترب مني وأمسكني من ثيابي بقبضتيه النحيلتين، ثم نظر في عيني وهو يصرخ: اقتلني الآن، فلم أعد أحتمل هذه الحياة، اقتلني واقذفني في الشارع، كل ما فعلته كان بسبب تهوري وغبائي، إنني لا أملك ذرة تفكير في دماغي هذا، لقد تدنّت نظرتي لنفسي حتى فقدت معرفتي من أكون!، أريد أن أموت، لأنّ الخوف أتعبنى، والقلق صلب جسدي، وحياتي هذه في الأصل ليست حياة.

انهار بالبكاء أكثر، ثم وضع رأسه على صدري وتكلم هامسًا: أنا أعتذر منك كثيرًا لم أقصد أن أقتل حلمك الطفولي العظيم والبريء ذلك.
بدأ جسدي عندها يرتجف كله، وسقطت دموعي بغزارة، فعانقته بقوة لدرجة شعرت بها بجسده الذي كان يتصبّب عرفًا، بل وشممت رائحته الكريهة التي أذكرها جيدًا، بعدها رفعت رأسه وقبلته على جبينه وحدثت في عيونه، لقد كان خائفًا مهزومًا ومُحطّمًا، ثم أخبرته: تبًا لجميع أحلام العالم أمام راحتك وسعادتك، لقد سامحتك وعفوت عنك، إنني أحبك من أعماق قلبي وأقدر تضحياتك، فإذا لم أحبك فمن ساحب؟

كذب

في عالم مليءٍ بالمُتَقَنِّينَ والمُخْتَبِئِينَ، في هذا المكان الذي تختفي فيه الرُّوحُ البشريَّةُ الحقيقيَّةُ، بينما نحاولُ نحنُ جاهدينَ جعلها في زاويةٍ مُظلمةٍ، كي لا نسمَحَ لأحدٍ أن يقتربَ منها، وكأَنَّها سرٌّ من العيبِ كشفُهُ أو الاعترافُ به حتَّى!

كان هناك مجتمعٌ يحكمُ على أفرادِهِ بأن يلبسوا أقنعةً مخصَّصةً يصنعونها لهم منذُ أن يولدوا، ويجبُ عليهم لبسها بشكلٍ مستمرٍّ أمامَ الآخرين، ومن الممنوعِ أن يعرفوا وجوهَ بعضهم الحقيقيَّةُ، حتَّى في منازلهم عندما يكونُ أحدٌ ما بجوارهم، يجبُ عليهم أن يلبسوها، ولا يمكنُهم نزعَ أقنعتهم إلا عندما يكونوا وحيدينَ لا أحدَ معهم، أمَّا من ينزعُ قناعه أمامَ الآخرين يُعرفُ شكلُ وجهه، يصبحُ دمه مهدورًا ومن حقِّ أيِّ شخصٍ قتلُهُ دونَ أن يعاقبَ أو يتعرَّضَ له أحدٌ.

في هذه البُقعةِ الجغرافيَّةِ، هناك مجموعةٌ من الأصدقاء، جمعتهم علاقةٌ قويَّةٌ وممتينةٌ، منذُ أن كانوا في الطفولة، كان بينهم ثقةٌ لا تنتهي ونفاهمٌ كبيرٌ، فحفظوا بعضهم عن ظهر قلب، وعرفوا كلَّ شيءٍ عن بعضهم البعض، لكنَّ هناك شيءٌ واحدٌ لم يعرفوه، هو أشكالُ وجوههم الحقيقيَّةِ من غيرِ ذلك القناع الذي يضعونه بشكلٍ مستمرٍّ، ذلك القناع الذي تحوَّلَ إلى جدارٍ، منعهم من معرفةِ أشكالهم وعيونهم وطريقةِ ابتسامتهم وتقاطيعِ جبينهم، إنَّه سدُّ منيعٌ مهما حاولتَ أن ترى ما وراءه، يمنحكُ ويجعلكُ تشعرُ بالفشل، وكأنَّ هناك شيئًا ناقصًا في الموضوع، ونقطةً مجهولةً لا يمكنُ الإمساكُ بها!

قرروا في يومٍ ما، وضعَ حدٍّ لكلِّ هذا الهراءِ والتَّمرِّدِ على كلِّ هذه القوانينِ، فلا شيءَ يضاهاي حريَّةَ الإنسانِ وحقيقتهُ، ولا شيءَ يضاهاي عفويتهُ وشكلهُ ووجهه الذي يشكِّلُ الجزءَ الأهمَّ من ذلك الجسد! هذا الجسدُ الذي جعلنا موجودين، وهذا الوجهُ الذي جعلَ العالمَ يميِّزنا ويفهمُ مشاعرنا وابتساماتنا، وحرزنا وطريقةَ تواصلنا مع الآخرين.

في هذا اليوم، عندما كان جميعُ أعضاءِ تلكِ الثورةِ مُتحمسينَ ليصبحوا الثَّوارَ الأقوى في هذه البُقعةِ الجغرافيَّةِ، لمواجهةِ تلكِ القوانينِ الظالمةِ التي

تحدُّ من حرِّيَّة الإنسان، سيفعلونَ هذا الأمرَ مع بعضِ متوحِّدينَ مُجتمعينَ معًا، تقويّ عزيمتهم تلك النِّقطة التي بنوها خلالَ السَّنواتِ الطويلة، والتي منَ المستحيلِ كسرُها.

كنّا جالسينَ في بيتِ أحدِ أصدقائنا، في تلكِ الغرفةِ التي أناروها بقوةِ حتى تتجلي الحقائقُ ويظهرَ كلُّ ما كانَ مُختبئًا منذُ القَدَم، بعدَ أن أحكموا إغلاقَ جميعِ الأبوابِ والنوافذِ، بدأوا بخلعِ أقمعتهمِ الواحدُ تلوَ الآخرِ، الجميعُ كانوا يشعرونَ بالخوفِ والقوَّة، وبالتمرُّدِ عليه في اللّحظةِ نفسها، مع مشاعرٍ منَ الفرحِ والسُّرورِ، وكأنَّهُ العيدُ الذي لطالما حلموا بمجيئه، وها هو الآنَ تحقّق.

لم يبقَ أحدٌ في الغرفةِ إلّا وأظهرَ وجهه ما عدا شخصٍ واحدٍ، هو أنا، لقد كنتُ خائفًا ومترددًا لدرجةٍ لا تُصدّق، حيثُ الجميعُ أصابتهمُ الصّدمةُ من تصرُّفي هذا، مُنتظرينَ اللّحظةَ التي أتشجّعُ وأفعلها، لقد كنتُ خائفًا، فقد أفضيَ على نفسي بسببِ تهوُّري، انتابني الرُّعبُ بأنّه يمكنُ أن تكونَ نهايتي، وعليّ عدَمُ التّسرُّعِ، لكنّ الذينَ كانوا حولي سألونني، نحنُ أريناكِ وجوهنا، ألا تتقُ بنا؟

شعرتُ حينها أنّهُ يجبُ عليّ أن أقومَ بذلكِ، فقد اكتفيتُ من الجُبِنِ والخوفِ، بالفعلُ أزلتُ ذلكَ الفِناغِ المقبِتِ عن وجهي ورفعتُ عنه الستارَ، شعروا بالسّعادةِ جميعهمُ، وانهاوا بالتّصفيقِ لي في كلّ أرجاءِ المكانِ، ثمّ قال لي أحدُهم: لماذا كنتُ تُخفي عنّا هذا الوجهَ الجميلَ؟

بعدَ حدوثِ هذا الأمرِ، كانَ الجميعُ مُرتاحًا وسعيدًا، لكنني أدركتُ بأنني كُثيفتُ على حقيقتي وبأن مصيري قريبٌ، باتَ كلُّ منَ حولي عدوًّا لي، وكانني في معركةٍ مع الجميعِ، فتوجّب عليّ إنقاذُ نفسي ممّا اقترفتُ يداي من ذنبٍ قادرٍ على تدميرني، ذلكَ الذّنبُ الذي لم يكنُ موجودًا عندَ أحدٍ منَ الموجودينَ، ذلكَ الذّنبُ الذي يبدو أنّهُ مزروعٌ في داخلي فقط ولم يكنُ مزروعًا في الآخرينَ، شعوري كانَ مُريعًا عندها ولم أعرف كيف يمكنني أن أتخلّصَ منه، فقد يمتدُّ هذا الشعورُ ويكبرُ في داخلي كلّ حياتي، حتى لو لم يحدثِ أيُّ أمرٍ يشكّلُ عائقًا في طريقِ إكمالِ حياتي بشكلٍ طبيعيٍّ، لكنّ الشعورَ بأنني أعطيتُ الآخرينَ نقطةً يمكنها إنهاءي في أيّة لحظةٍ، تلكَ النّقطةُ كافيةٌ لقتلي.

خرجتُ من تلك الغرفةِ إلى غرفةٍ أُخرى وبدأتُ بالتفكيرِ بمُفردِي، كانتِ الأفكارُ تتداخلُ مع بعضها وتتراحمُ ضاغطةً على دماغي حتّى كادَ ينفجرُ، ليسَ الصّداغُ الذي في رأسي وحدهُ، هو ما كانَ يؤثّرُ بي، بلُ كلُّ طرفٍ في جسدي قد تخشّب، والتوتّرُ راحَ يضغطُ أعصابي، فبدأتُ في داخلِ جسدي كَلَهًا، حربٌ لَنَ يحلّها الزّمنُ أبدًا!

تصاعدَ خوفي وغيبي لدرجةٍ كبيرةٍ في ذلك الوقتِ، ثمّ تذكرتُ المُسدّسَ الذي يُخفيه صديقي في تلك الخزانة! فذهبتُ وأخرجتُهُ ثمّ عدتُ إلى جميعِ الجالسينَ في تلك الغرفةُ، وأطلقتُ الرّصاصَ عليهم الواحدَ تلو الآخرِ، حتّى عمّ الصّمتُ المكانَ وماتَ الجميعُ، شعرتُ حينها براحةٍ لا تُوصفُ وكانني أنقذتُ نفسي اليومَ وحميتُ كياني، بلُ وكنْتُ أكثرَ شخصٍ صادقٍ منَ الموجودينَ، لأنني كنتُ الشّخصَ الوحيدُ، الذي تمكّنَ منَ إظهارِ جانبِهِ المظلمِ!

حُجَّة كَافِيَةٌ

نحنُ الآنَ في عامِ ألفٍ ومئةٍ، إنَّه عامٌ مميِّزٌ بسببِ وجودِ صَفرينِ فيه، كما أنَّه بدايةُ قرنٍ جديدٍ على هذا الكوكبِ، مع كلِّ ذلك لا يزالُ في بلدنا عندَ حدوثِ مشكلةٍ ما بين شخصين، يقفُ الاثنانِ أمامَ الجميعِ لشرحِ مشكلتهما، والجمهورُ وحدهُ مَنْ يقرّر، مازلنا لا نملكُ قانونًا يسيِّرنا، الأمرُ يعودُ فقطُ لرأيِ الأغلبيةِ السَّاحقة، حتَّى لو كانت مُخطئةً.

في إحدى المرَّات، حدثتُ مشاجرةً داميةً بين اثنين من الشُّبان، وعلمتُ أنَّ أحدهم استعملَ سِكينةً مطبُخ، وشوّه وجهَ الآخر وقطعَ يدهُ.

بعدَ معرفتي اسمَ الشَّابِّين، أدركتُ بسرعةِ البرقِ وبشكلٍ بديهيٍّ مَنْ الذي استخدمَ السِّكِّينَ! كان حازمٌ وهو المعروفُ منذُ صِغره أنَّه سيكونُ رجلَ عصاباتٍ في المستقبلِ، شريرًا مجرمًا ومؤكَّدٌ سيقتضي كلَّ سنواتِ حياته في السِّجْن، فليسَ في قلبه ذرَّةٌ شفقةٍ أو ضميرٍ حيٍّ، أمَّا عن شعوره بالذنبِ فهو معدومٌ، بينما كان سالمٌ وهو الثَّاني، أصغرُ من خصمه حازمٌ بالعمُر، ويُعرفُ عنه صدقُهُ وابتسامتُهُ التي لا تفارقُ وجهه، وضميرُهُ الحيُّ وإنسانيَّتُهُ الواسعة، بالإضافةِ إلى صفتهِ المميِّزةِ ألا وهي نُكتهُ الطفوليةُ البريئةُ، التي تُوقظُ الطفلَ بداخلِ كلِّ من يتعاملُ معه، حتَّى أنَّ الجميعَ يُقسِمونَ على محبتهم له.

نشأ العِراكُ عندما قامَ سالمٌ بلمسِ شعرِ حازمٍ، ثمَّ أخبره بأنَّ عليه الدَّهابَ إلى الحَمَّامِ بأسرعِ وقتٍ، عندها تفجَّرَ غضبُ حازمٍ وحقدُهُ، فأخرجَ سِكينتهُ ثمَّ راحَ يحاولُ القضاءَ على خصمه "حازمٌ" والاعتداءَ عليه بطريقةٍ لا تمثُ للبشرِ بصله.

وقفنا جميعًا في ساحةِ المدينةِ للاستماعِ، عندما راحَ سالمٌ وحازمٌ يحكيانِ قصَّتهما وسببَ العِراكِ، بينما كانَ علينا نحنُ، أنْ نحكِّمَ مَنْ هو المذنبُ من بينهما!

منذُ بدايةِ هذهِ الجلسةِ التحكيميةِ، كانَ الجميعُ واقفاً وقفَةً المُناصرِ لسالمٍ، فقدُ خيّمَ الحزنُ على المدينةِ عندما علِمَ الجميعُ ما حدثَ له، أمّا الآخرُ الذي لا يُسمّى، كانَ الجميعُ يريدُ النَّيلَ منهُ والنَّخْلَ من أديتهِ المستمرّةِ لكلِّ مَنْ حوله.

ها هما سالمٌ وحازمٌ على المنصّةِ.

حازمٌ يقفُ وقفَةً الشّامخِ الواثقِ بنفسِه ويقولُ: لقد أخطأ في حقّي، وبالتأكيد

كان يجبُ عليّ أن أدافعَ عن نفسي، فمنّ المُعيبِ أن يستهزئَ بشعري!

سالمٌ عيناؤه في الأرضِ يبدو عليه الخجلُ، ويردُّ على خصمه: لكنني لم أفعل

أمراً يستحقُّ كلَّ هذا الرّدِّ العنيفِ منك!

حازمٌ غيرُ مُعترفٍ بخطئه، بلٌ ومتأكدٍ من حقه في ذلك وهو يصرخُ وينظرُ

إلى عدوّه: مَنْ قالَ لك أن تقتربَ منّي وتقومَ برميِ نُكتِكَ السخيفةِ مثلك

عليّ؟ تحمّلْ ما اقترفتَ يداك، فأنتَ مَنْ فعلتَ ذلكَ بنفسِك.

سالمٌ بحزنٍ وصدمةٍ وهو ينظرُ إلى حازمٍ: نعم ربّما أنا مذنبٌ وأخطأتُ.

صرخَ كلُّ مَنْ كانَ في السّاحةِ تقريباً: يستحقُّ سالمٌ ما حدثَ له، إنّه مذنب!

ما هذه الصّدمةُ؟! ما الذي غيّرَ رأيهم بهذهِ السّرعَةِ؟!!

بوذا الحبوب

وُلِدْتُ عامَ ألفٍ وخمسمئةٍ وسبعينَ، في يومِ ربيعيِّ جميلٍ، كان كلُّ تفصيلٍ مثاليًّا منذُ ولادتي، أتيتُ إلى هذا العالمِ وفي فمي ملعقةٌ من ذهبٍ، وعودتُ كما يعاملُ الملوكُ، كلُّ شيءٍ كان مؤمَّنًا بالنسبةِ لي، لم أحلمُ بأمرٍ إلا وتحقَّق، حتَّى اعتقدتُ في يومٍ ما أنني إذا طلبتُ أن أجوب الكونَ كلُّه في سفينةٍ بحريةٍ سيتحقَّق ذلك، فوالدتي أميرةٌ ووالدي أميرٌ.

ترعرعتُ في قصرٍ ملكيٍّ لم يعيش فيه أحدٌ من أقراني، من حيثٍ اتَّساعِهِ وبنيتِهِ، إلى كلفتهِ التي لا تقدَّر بثمنٍ، أمَّا تدريسيُّ فكانَ على يدِ أعظمِ المدرِّسينَ في العالمِ وأشهرِ الفلاسفةِ في عصرنا، تعلَّمتُ أشياءَ كانتُ مُعَيَّبةً عن عقولِ الكثيرينَ، حفظتُ أسرارًا لا يعرفها إلا الملوكُ.

ومعَ كلِّ ذلكَ، عندما أصبحتُ شابًّا كنتُ يومياً أشعرُ بأنَّ هذا القصرَ الملكيَّ الواسعَ يضيقُ، ليتحوَّلَ إلى سجنٍ يقطعُ أنفاسي، ويجبرني على التفكيرِ المتعبِ، والتخيُّلِ الدائمِ لكيفيةِ الحياةِ في الخارجِ! كان لديَّ توقُّقٌ لأعيشَ التجاربَ، ملكتُ من المعرفةِ، أحببتُ أن أصارعَ الحياةَ وتصارعني، تمنَّيتُ أن أضربَ بيديَّ النظيفتينِ التي لم تلوَّثهم متاعبُ هذه الدنيا، أيَّ شخصٍ يمكنُ أن يقفَ أمامي! وأتعاركُ معه لأرى هل يمكنني القتالُ؟ فقد تدرَّبتُ على الكثيرِ من الرياضاتِ القتاليةِ، لكنِّي لم أختبرَ مهاراتي أبداً، سئمتُ من هذه الحياةِ المُترفةِ السهلةِ المنالِ، وضجرتُ إلى حدِّ دفعني لاتِّخاذِ قراري الأخيرِ بالهروبِ بعيداً، كي أصلَ إلى الخبرةِ، وأستنتجَ الحكمةَ والمعنى من كلِّ هذه الحياةِ.

منذُ خروجي من ذلكَ البابِ العملاقِ الذي يحمي قصرنا، رأيتُ مشاهدًا لم أكنُ لأتخيَّلها أبداً، لقد سمعتُ مسبقاً عن صعوبةِ وبشاعةِ العالمِ خارجِ القصرِ، وأتُّه لا يجبُ لأميرٍ مثلي خوضها.

على الرَّغمِ من كلِّ ذلكَ، كانتِ الحياةُ جميلةً في البداية، فالكلُّ يقاتلُ بين حبهٍ للأحرزِ ومحاولةِ فوزه عليه في الوقتِ نفسه، لكنني كنتُ أرى الصُّورةَ من بعيدٍ، ويوماً بعدَ يومٍ، عندما صرْتُ أتعَمِّقُ في هذه المعيشةِ الغيرِ

مناسبة لتربيتي، كانت الأوضاع تسوء، فضررتي مرّة ثلاثة شُبَّانٍ وأوقعوني أرضاً بلا سبب، كنتُ أعملُ حينها في متجرٍ لبيع الألبسة المستعملة، وأعاني من تعاملٍ صاحب المتجر المتعطرٍ معي، بذلك الأسلوب غير المحترم، الذي ما اعتدته أبداً.

كنتُ أنامُ أحياناً في الطُّرقات، حتى أتني أكلتُ في أحدِ الأيام طعاماً رديئاً لم يعجبني مذاقه البتّة، لكني كنتُ جائعاً ومجبوراً، لم أكنُ أنظرُ لنفسي في المرأة لأعلمَ كيف كان شكلي، حتّى نظفتي الشخصية نسيئها، في لحظاتٍ صغيرةٍ شعرتُ بالحنين لذلك الوقت، الذي كنتُ أجلسُ فيه وحيداً مرتاح البالِ أفكراً، وأتخيّلُ أشياءً طفوليةً تسعدني، حتّى تلك الأيام الذي كنتُ أتخيّلُ فيها مشاكلَ صغيرةً تزعجني، كانتِ الآنَ رائعةً بالنسبة لي! كلُّ هذا حدثٌ ولم أخبرُ أحداً بأنني ابنُ الأميرِ الأعظم!

مع كلِّ ذلك الألم الذي تعايشتُ معه، كنتُ أحاولُ الصبرَ مراراً وتكراراً، أردتُ أن أستنتجَ وأصلَ إلى الحكمة من كلِّ هذه الصعابِ والمتاعبِ. بعدَ ثلاثِ سنواتٍ من طريقة العيش تلك، وصلتُ إلى تلك الحكمة التي يمكنُ اختصارها بجملةٍ واحدةٍ مفادها: "يجبُ عليَّ الهروبُ والعودةُ إلى ذلك القصرِ بالسرعة القصوى، وإلا سَأُصابُ بالجنون!"

غرور

لي عدة شهورٍ لا تعتبرُ قليلةً أبدًا، أعيشُ فيها تجربةً مستمرةً من الرعبِ في كلِّ مكانٍ وفي كلِّ لحظةٍ، هناك كائنٌ لا يمكنني تسميته إلا بالوحشِ المخيفِ أو الشيطانِ، يلاحقني بشكلٍ متواصلٍ ويحاولُ أن يأخذَ موقعي، يركِّزُ جاهدًا على تهميشي وإخفائي ودثري لأصبحَ بلا قيمةٍ، عبارةً عن إنسانٍ غيرِ مرئيٍّ، مختفٍ تمامًا كأنني لم أخلقُ من الأصلِ.

هذا الكائنُ هو أنا، وهذا أكثرُ ما هو مرعبٌ في الموضوع، نعم يشبهني كثيرًا، لكنَّهُ يمتلكُ كلَّ الصِّفاتِ التي أتمناها، لديه العضلاتُ والجسدُ والوجهُ الذي أريدهُ، وقوَّةُ الشخصيةِ التي أطمحُ لها، والذكاءُ والمهارةُ والخبرةُ التي لطلما حلمتُ بها.

إنَّهُ يراقبني ويمشي بجانبني عندما أكونُ في الطريقِ، حتَّى أنَّه عندما أجتَمعُ مع النَّاسِ يجلسُ بجانبني أو يقفُ أمامي.

حاولتُ الهروبَ منه، اختبأتُ وسجنتُ نفسي، كنتُ أتوقَّعُ أنَّه لن يتمكَّنَ من الوصولِ لي، لكنَّهُ دخلَ ووقفَ أمامَ وجهي، ثم راحَ يحدِّقُ إليَّ! فشعرتُ أنَّ عينيهِ ستحفظانِ من مكانهما، وبخني وأساءَ لي بكثيرٍ من الكلماتِ البشعةِ، ثم بدأ يوجِّهُ التَّهمَ إليَّ كأنني المشكلةُ الوحيدةُ في هذا العالمِ، أو المذنبُ الذي ارتكبَ كلَّ الذُّنوبِ مجتمعةً، لم أستطعُ مجاراته، ولم أردَّ بكلمةٍ واحدةً، ورؤيداً رؤيداً شعرتُ أنَّه يجبُ عليَّ أن أطيعه مع رُعيي الشديدي، وكان خوفي الأكبرُ أنني إذا قتلتهُ سأقتلُ نفسي، وسأقتلُ صورةً تمنيتها كلَّ حياتي، وإن تركتهُ سأبقى كالخادمِ، وسأعيشُ حياةً مغمورةً بالبؤسِ، لا تسمحُ لي كرامتي أن أعيشها في أيِّ يومٍ.

في يومٍ من الأيامِ، بعدَ عراكٍ ونزاعٍ طويلٍ في بيتي، بيني وبينَ هذا الشيطانِ، حاولتُ ضربهَ وقتلتهُ، لكنني اكتشفتُ وتيقنتُ وقتها أنَّه أقوى منِّي بمراحلٍ كثيرةً، ومن المستحيلِ هزيمتهُ، ففتحتُ بابَ المنزلِ ثم ركضتُ هاربًا في الشارعِ، فتقصَّدَ الرِّكضَ خلفي كي يُديمَ خوفي طويلًا، وأبقى مطيعًا وخانعًا له.

وأنا أركضُ نظرتُ خلفي، كانَ هناكَ كما توقَّعتُ، لكنني لاحظتُ أمرًا

غريباً عليه، كانتِ الشَّمْسُ قويةً ومائلةً قليلاً في ذلك الوقت، كلُّ شيءٍ يملكُ ظلاً، وكلُّ ما هو حقيقيٌّ له ظلٌّ، ما عدا هذا الكائنَ المرعبَ، فليسَ لديه! وقفتُ ونظرتُ إليه نظرةً مواجهةً وتحديّ قائلاً بنبرةٍ من السّخرية: لماذا أنتَ لا تملكُ مثلَ الآخرينَ ظلاً؟ يبدو أنّكَ لستَ حقيقيّاً. وقفتَ فجأةً وأجهشَ بالبكاءِ مثلَ طفلٍ كُشِفَتْ فعلتُهُ التي كان يخفيها عن والديه.

أدركتُ حينها أنه هسٌّ وضعيفٌ من الداخل، لكنّه يخبئُ ضعفةً بهذا الكمالِ وبتلك المثالية التي تتخطى الحدودَ الطبيعيةً. بعد هذا اليومِ قررتُ عدمَ قتله، وتركتُهُ بجانبِي في كلِّ مكانٍ، فقد احتاجُهُ في لحظةٍ ما! ومع ذلك استمرّيتُ بالسّخرية منه وإهانته، حتّى أضعفتُ سلطته عليّ، أجبرتهُ على إطاعتِي دائماً وتركتُهُ صديقي، فلم أعد أَرغبُ بالتّخلي عنه، في النهاية، هو جزءٌ منّي.

معركة داخلية

في زمنٍ قديمٍ لا يمكنُ تحديدهُ بالأرقام، كان هناك رجلٌ فائقُ الذكاء، يمتلكُ شهرةً كبيرةً، ويتَّصفُ بحكمتهِ وشدّةِ إدراكه في قبيلتهِ، حتّى ذاع صيتهُ في القبائلِ المجاورةِ.

في لحظةٍ ما كان جالسًا مع صديقَيْهِ المُقرَّبَيْنِ جدًّا إليه، لكنّهم من قبائلٍ مختلفَةٍ، عندها أخبرَهما: أشعرُ أنّ في داخلي معركةً صعبةَ الحلّ، حيثُ لديّ رغبةٌ في أن أصبحَ قائدًا لهذهِ المنطقةِ، لأنقذها من كلّ شيءٍ يؤذيها، "الألم، الحزن، واليأس"، لكنّ هناك صوتٌ معاكسٌ آخرُ في أعماقي، يقولُ لي: لن تتمكّنَ من فعلِ ذلك، عليك أن تبقى صديقًا للجميعِ المُنتمي إلى الكلّ، إيّاك أن تصبحَ شخصًا كبيرًا ذا منصبٍ، لأنّك ستكونُ قائدًا وحيدًا! كان صديقُهُ الأوّلُ مع فكرةٍ أنّه سينجحُ وسيقدّمُ فائدةً للجميعِ إذا تحوّلَ إلى قائدٍ، وذلك ما يستحقُّه، أمّا الثّاني فكانَ مع بقاءهِ صديقًا للجميعِ، وأنّ ذلك أفضلُ له ولصحتِهِ النفسيّةِ، فلا سبيلَ للنّجاحِ وسيبقى الألمُ موجودًا من دونه أو معه.

بعدها جمعَ صديقاَهُ قبيلتَهُ وكلّ من يعرفونَ ليقفُوا في صفِّ رأيه، فحصلَ انقسامٌ كبيرٌ في المنطقةِ، ثم توسّعَ الخلافُ وتحوّلَ إلى حربٍ طاحنةٍ بينهم... مازالتُ باقيةً حتّى يومنا هذا!

السُّلْحَفَاءُ

في السِّبَاقِ الْعَالَمِيِّ الْأَخِيرِ بَيْنَ السُّلْحَفَاءِ وَالْأَرْنَبِ.
كَانَ الْأَرْنَبُ يَفْقَرُ وَيُرْكَضُ بِسُرْعَةٍ شَدِيدَةٍ، لِدَرَجَةِ أَنَّ أَقْدَامَهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ
تُرَى مِنْ سُرْعَتِهَا، وَيَبْدُو فَوْزُهُ فِي هَذَا السِّبَاقِ حَتْمِيًّا، أَمَّا السُّلْحَفَاءُ فَكَانَتْ
تَمْشِي بِبَطْءٍ شَدِيدٍ، وَتَحْفَظُ كُلَّ مَعَالِمِ الطَّرِيقِ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِ "الْحُفْرِ"،
الْخُطُوطِ، الْمَطْبَاتِ" بِسَبَبِ صَبْرِهَا عَلَى خَطَوَاتِهَا الَّتِي تَكَادُ لَا تَلَاظُ أَيَّ
تَقَدُّمٍ لَهَا!

فِي النَّهَايَةِ انْتَصَرَ الْأَرْنَبُ، وَكَانَ هَذَا الشَّيْءُ مُتَوَقَّعًا، وَلَمْ يَصْدُمْ أَحَدٌ.
حَيْثُ تَوَجَّحَ الْأَرْنَبُ بِأَنَّهُ الْأَسْرَعُ فِي الْعَالَمِ، فِي حِينِ أَنَّ السُّلْحَفَاءَ أَصْبَحَتْ
الْمُعَلِّمَةُ وَالْمُدْرَسَةُ الْأَفْضَلُ فِي الْعَالَمِ.

جواب

في إحدى سنوات المدرسة، عندما كنا في المرحلة الإعدادية، وقفتُ مُدرّستنا فجأةً وسألتنا سؤالاً غريباً جداً: كيف ستهزمون الجميع؟ ثم طلبت من كلِّ طالبٍ أن يقفَ ويجيبَ على السؤال.

الأول: سأصبحُ أغنى رجلٍ في العالم.

الثاني: سأتدرّب لأكون أقوى رجل.

الثالث: سأكون الأذكى والأكثر عبقرية.

الرابع: سأسيطرُ على الكوكب.

الخامس، وقفَ متردداً وهمسَ بكلماتٍ غير مسموعة. لذلك أجبرته المعلمة أن يرفعَ صوته.

حينها رفعَ صوته المرتجف قائلاً: سأحبُّهم.

أصابت طلاب الصف وقتها، نوبةً حادةً من الضحك!

خفي

حدثتِ القصةُ في يومٍ ما، عندما كنتُ أركضُ في الغابةِ القريبةِ من منطقتنا،
لأمارسَ رياضتي الصَّبَاحِيَّةَ، صُدْفَةً رأيتُ نبتةً شكَّلها غريبٌ، وعلى الرَّغمِ
من أنني مختصٌّ في هذا المجال، لكنني لم أعرف ما هي؟ عليها ثمرةٌ
غريبةُ الشكلِ أيضًا، وبكلِّ تهورٍ أخذتُ الثمرةَ وتناولتها! في تلكَ اللحظةِ لم
يحدث لي أيُّ أمرٍ.

أكملتُ رحلتي وعدتُ إلى المدينة، وما حدث أن الناسَ في المدينة لم
يلاحظوا وجودي، ولم يسمعوا صوتي عندما رميتُ السَّلامَ عليهم! شككتُ
بأنهم لم ينتبهوا وهذا شيءٌ طبيعيٌّ يحدثُ أحيانًا، لكن عندما دخلتُ إلى
منزلي، ونظرتُ في المرآةِ المُثَبِّتَةِ إلى جانبِ بابِ المنزلِ، لم أشاهد نفسي
وكنْتُ غيرَ موجودٍ! كنتُ مختفيًا تمامًا ليس لي أيُّ أثرٍ، وكأنني بطلٌ خارقٌ
يملكُ القدرةَ على الاختفاء، أحسستُ بأنني امتلكتُ قوَّةً جميلةً، لكنني
شعرتُ بالخوفِ في الوقتِ نفسه، ماذا يمكنُ أن يحدثَ لي مستقبلًا؟ في
بدايةِ الأمرِ، بدأتُ بالخروجِ إلى الطَّرقاتِ، لأحصلَ على كلِّ ما أريدهُ،
أصبح بإمكانني أن أسرقَ الأموالَ والطَّعامَ بكلِّ سهولةٍ، أمَّا التَّجسُّسُ على
النَّاسِ ومراقبتهم فباتَ من أسهلِّ الأمورِ بالنَّسبةِ لي، كنتُ أدخلُ البيوتَ
وأخرجُ منها من دون أن ينتبهَ أيُّ أحدٍ على وجودي، عرفتُ أسرارَ النَّاسِ
ومشاكلهم، كشفتُ كلَّ إنسانٍ على حقيقتهُ، وصرتُ أفهمُ البشرَ أكثرَ، فأنا
أراهم عندما يكونونَ مع النَّاسِ وعندما يعزلونَ، عندما يرقصونَ في
الحفلاتِ مجتمعيينَ، وفي بيوتهم وحيدين! أصبحتُ أكثرَ شخصٍ حُرِّ على
وجهِ هذا الكوكبِ، فلا أحدٌ يستطيعُ أن يراني، تحررتُ من قفصِ المجتمعِ،
ومن نظراتِ البشرِ التي تسجنُ الإنسانَ، كنتُ سعيدًا بهذهِ القوَّةِ التي بينَ
يدي، فشكرتُ الحياةَ والخالقَ على ما أهداني، إنَّها هديةٌ لا يتصورها عقلٌ
بشريٌّ.

بقيتُ فترةً طويلةً وأنا تغمرني السَّعادةُ، وأتمتُّ بشعورِ الكبرياءِ والتميزِ عن
غيري، لكن رويدًا رويدًا انتابتنِي الرَّغبةُ بإثباتِ وجودي للنَّاسِ، كلُّ ما
كنتُ أريدهُ هو أن أكونَ مرئيًا، أن ألفتَ نظرَ النَّاسِ، فأنا جزءٌ من البشرِ
وأملكُ حبَّ الظهورِ مثلهم، حاولتُ كثيرًا اظهارَ وجودي، لكنَّ كلَّ

محاولاتي بانث بالفشل، صرثُ أرسُمُ على جدران الشوارع وأكتبُ اسمي عليها، لكن لم يكن هناك أمل، فلم أكن رسّامًا خارقًا ومبدعًا كي تلفت رسوماتي انتباههم، وقفثُ أمامهم وصرختُ بأعلى صوتي طويلًا، لكن لا حياة لمن تنادي، فدخلتُ في حالة اكتئابٍ فظيع أثقلَ كاهلي ودمّرَ كياني! امتلكتُ كلَّ شيءٍ يمكن أن يمدني بالسعادة، لكنني لم أعد أمتلكُ وجودي وشكلي، حتّى صوتي صارَ غيرَ مسموع! أنا لا شيء الآن وكلُّ ما أحلمُ به هو أن أتحوّلَ لشيءٍ، لم أعد أحتملُ ما يحدثُ لي، بعد أن تأكّدتُ أن الغياب يحتاجُ طاقةً أكبرَ بكثيرٍ من الحضور!

من كثرة مللي واکتئابي، ومن مراقبتي الدائمة للناس، شاهدتُ الظالم والمظلوم، والجاني والمجنيّ عليه، والقويّ والضعيف، راقبتُ الأغنياء المتعجرفين الذين يعيشون أجملَ حياة، وفي المقابل من حياتهم مليئة بالقلّة والأسى، وكيف أن الحياة غيرَ عادلة والأخلاق كذبة، لذلك بدأتُ بسرقة الأغنياء وإعطاء الأموال للفقراء المعدمين ومدّهم بالقليل من الأمل، في محاولة منّي لجعل الحياة أكثرَ إنصافًا ممّا هي عليه، ثم صرثُ أحاسبُ الظالمين، ومن كان شديد القسوة منهم كان رديّ عليه أكثرَ قسوة، وصلّ أحيانًا لدرجة القتل! أخاف الناس وجودي غير الواضح وظهوري غير الملموس وأفعالي غير المُبرّرة، فجعلهم أكثرَ حذرًا وهدّبت نفوسهم، ربّما كلُّ ما فعلته كان ناجمًا عن رغبتني بالظهور وإثبات وجودي في هذا العالم، ولم أجدُ طريقةً أفضلَ من أن أحكم العالم وأسيره بقانوني الخاص.

صراع

اليومَ تصارعَ أمامي اثنان من أصدقائي، كان قتالًا داميًا، ليس مجرد جدالٍ بسيطٍ، بل إنَّه أكثرُ من ذلك بكثيرٍ، كان الأولُ يريدُ لعبَ البلياردو اليومَ، أمَّا الثانيُ يريدُ غدًا تناولَ الكنافةَ، رأى الأولُ أنَّ البلياردو لعبةٌ مسليَّةٌ ولا يشبُّهها أيُّ شيءٍ آخرَ من الألعابِ، حيثُ تجمعُ بينَ التركيزِ والتخطيطِ للمستقبلِ، بالإضافةِ إلى الخبرةِ والمهارةِ الضروريةِ للفوزِ فيها، لذلكَ كان مُصرًّا أنَّ فكرتهُ صحيحةٌ، وكلَّ ما يقابلُها هو خطأ، ويجبُ علينا أن نلعبها اليومَ.

أمَّا الثانيُ كان يرى تناولَ الكنافةِ غدًا، هو شيءٌ من المتعةِ والفائدةِ في الوقتِ نفسه، فمذاقُها تتمنى أن تعيشَ معه إلى الأبدِ، أمَّا فائدتها فلا نقاشَ عليه حتَّى لو قال الكارهونَ، إنَّها سُكَّرِيَّاتٌ مُضِرَّةٌ للصحةِ برأيه، لذلكَ علينا تناولَ الكنافةِ غدًا.

إنَّه صراعٌ غريبٌ على أمورٍ مختلفةٍ!
في العادة، البشرُ يتصارعونَ من أجلِ أمورٍ متشابهةٍ.

ناضج

في ثالث سنة لي في الجامعة، حضر إلينا طالبٌ جديدٌ كان قد انتقل من جامعةٍ أُخرى، وأنَّ يغيّر الطلابُ جامعتهم وينتقلون لظروفٍ مختلفة، فهذا شيءٌ طبيعيٌّ، لكن ما كان غريباً في الموضوع، هو أن هذا الطالب كان يبدو عليه أنه كبيرٌ جداً في العمر، وكأنه عجوزٌ قرّر أن يحقّق أحلامه ويدخل الجامعة ويبدأ من جديد، لباسه لباسٌ كبارٍ في العمر، أمّا صوته الأجنسٌ ولحيته وسلوكه ففرضوا احترامه على الجميع، منذُ قدومه ودخوله إلى قاعة المحاضرات لمشاركته معنا.

عندما رأيته للوهلة الأولى قلتُ ربّما هو ترك الدراسة فترة، والآن عاد ليدرّس ويكمل جامعته.

يوماً بعد يومٍ، ومع تواجده المستمرّ بيننا تعرّفنتُ عليه، كان اسمه "كامل" لكن ما اكتشفته أنه لم يكن كبيراً أبداً بل كان بعمرنا، حتّى أنه كان أصغر مني بعدة أشهر، لكن لم تتغيّر نظرتي تجاهه على الرغم من ذلك، وصار يجلسُ معنا باستمرارٍ، بدا عليه من صوته الرّخيم الهادئ وأسلوب كلامه إلى حركات يديه، أنه شخصٌ واعي وناضج، ظننتُ عندها أنه عانى وقاسى الكثير من الألم، وتعب في حياته حتّى وصل لهذه المرحلة من العمر العقليّ، فمن قوانين الحياة "التجاربُ الكثيرة" تعطي خبرةً ونضجاً واسعين. قرّرتُ عندها التقرب منه حتّى أتعلّم، لعلميّ أستفيد من حكمته الكبيرة، بفائدةٍ تساعدني في مستقبلي الذي يبدو غامضاً ومجهول النّهاية.

تقرّبتُ منه أكثر فأكثر، فتحول لصديقٍ مفضّلٍ لي، كنتُ أزوره ويزورني بشكلٍ شبه يوميّ، وعلاقتنا أصبحت قويةً ومتينةً، لكن ما اكتشفته وأثار في أعماقي الفضول الكبير عندها، أنه لم يتعرّض لأيّ ألمٍ أو خبرة، إنّما هو عبارة عن شخصٍ مدلّلٍ طيب القلب، ولم يعانٍ في حياته ولو لمرة واحدة، فتأكّدت حينها أنّني عشتُ تجارباً أكثر منه، وحصلتُ على خبراتٍ تزيدّه بمراحل.

لم أستطع تمالك لساني بعد كلّ ما عرفتُ، وفي أحد الأيام، كان جالساً في بيتي في غرفة المعيشة، سألتُهُ بشكلٍ مباشرٍ: على الرغم من أنّك لم تعانٍ

في حياتك، وليس لديك خبرة كافية، ولا تزيدني في العمر، كيف أصبحت بهذا التضج كله؟

أجاب كامل بكل هدوء وهو يبتسم ابتسامة الثقة، ويتكلم بهدوء مخيف: من أخبرك أنني ناضج؟ أنا، وكنت أشعر بالفضول: من الواضح أنك كذلك، وكل من حولك لاحظوا هذا الأمر؟

كامل، بطريقة جدية يظهر عليها الاستهزاء بأسئلتني: الموضوع بكل بساطة، أنا أقدم الكبار في السن بلباسهم وطريقة كلامهم وردود أفعالهم لا أكثر!

مراحل تحرر

في ثقافتنا هناك أفكارٌ غيبيةٌ راسخة، مرتبطةٌ بأذهانِ الناسِ وكأَنَّها نُقِشتْ على الحجرِ، ولا يمكنُ تغييرُها أبدًا، تداولوها منذُ القَدَمِ وأصبحتْ جذرًا لا يمكنُ إزالتها، وجزءًا لا يتجزأ من عاداتٍ وتقاليدٍ سائدةٍ لا تمتُّ للمنطقِ والواقعِ بصلَّةٍ، يتمسكونَ بها كأنَّها هويَّتُهُم، ويعتقدونَ أَنَّهُم من دونها سيصبحونَ بلا هويَّةٍ، بلا ذاتٍ أو وجودٍ، فإمَّا أن يكونوا معها أو لا يكونونَ.

غريبٌ كيف يمكنُ لإنسانٍ أن يدافعَ عن فكرةٍ، ويسمحَ لها أن تسكنَ في عقلِهِ وصميمِهِ دونَ أن يشكَّ بها ولو للحظة!

ما الذي يجعلنا مُتَعَنِّتِينَ هكذا بأوهامنا؟ ولماذا نشعرُ أساسًا أَنَّها تَمَثَّلُ هويَّتِنَا؟ هل لأنَّها تَمَثَّلُ تَمَيِّزَنَا وتفرِّدنا عن باقي الشعوبِ؟ مؤكِّدٌ غرورنا يعمي أبصارنا عن رؤيةِ الواقعِ كما هو، بلا أحكامٍ أو صندوقٍ ننظرُ من خلاله إلى العالمِ!

إحدى هذه الأفكارِ التي كانت تَمَثَّلُ حربًا مصيريةً بالنسبةِ لي، مُفادها أن على الرجلِ ألا يمشيَ ويضعَ يديه خلفَ ظهره شابكًا إِيَّاهما، ومَن يفعلُها يكونُ ضعيفًا سيئًا ومذنبًا بحقِّ ذاته وبحقِّ الآخرين، فصارَ أيُّ رجلٍ يقومُ بذلكِ يخجلُ من نفسه أمامَ الناسِ، وأصبحتْ مشيئةُ المتعبِ المثقلِ بالهمومِ عملاً مُشِينًا! حيثُ أَنَّهُم لا يصنّفونهُ ضمنَ الرِّجالِ، ومشيئُهُ تلكَ تنيرُ شكوكَ المارينَ، وكلُّ من يراهُ يسيرُ بهذهِ الطريقةِ، تنتابُهُ الصِّدمةُ والفرغُ. بالنسبةِ لي، كان شكلُ عموديِّ الفقريِّ وهيكَلُ جسديِّ، يجبراني على المشي بهذهِ الطَّريقةِ، كانتْ هذهِ المشكلَةُ موجودةً في كلِّ عائلتنا، كما لو أَنَّهُ بلاءٌ وورثاءٌ، كانتْ حالةٌ مرضيَّةٌ مزمنةٌ يجبُ علينا التَّعاشِشُ والتَّأقلمُ معها، لكنَّ المجتمعَ لن يقدِّرَ أن هذهِ الطَّريقةُ في المشي، إِنما سببُها هيكَلُ أجسادنا وشكلُهُ وتركيبَتُهُ، بل على العكس، راحوا يحكمونَ بطريقةٍ سلبيةٍ على كلِّ العائلة!

"المرحلة الأولى" مرحلة الخوف: في بداية عمري، عندما علمت نظرة المجتمع لمن يمشي بهذا الشكل، والعقاب الاجتماعي له، حاولت جاهداً مراقبة نفسي بالأفعال هذه الحركة، وفي اللحظة التي كان جسدي يأخذ فيها هذه الوضعية، كنت أحاول تغييرها سريعاً، حتى لو كانت هذه الحالة تناسبني وتناسب قوامي، لكن الخوف كان يمنعني من التحرك بالحرية التي أريدها، كي يتقبلني الناس ويحبوني، وخوفاً من التعرض للنقد الاجتماعي! كل ما كنت أريده أن أصبح مثلهم، متجاهلاً راحتني وحرّيتي في كوني على طبيعتي، مصارعاً حاجاتي وشكلي الحقيقي! كنت أقمع نفسي باستمرار، وأجمل منها وأشعرُ بالعار والذنب، حتى كرهتُ شكلي واستحقرتُ انحناء ظهري ويدي، نظرتُ لرأي المجتمع على أنه هو الصحيح، وأنا هو المخطئ الوحيد فيه، وضعتُ شخصيتي ورأيي على الهامش لا في المركز، وكان قصتي شيء جانبي بالنسبة لي، وليست شيئاً علي أن أعيره انتباهي وأنظر إليه، التفتُ فقط إلى رأي الناس واعتقاداتهم وكآتها قانون يجب أن ألتزم به كل الالتزام، وإلا سأكون لا شيء!

"المرحلة الثانية" مرحلة التمرد: وصلتُ لهذه المرحلة عندما سئمتُ مما يحدث معي، فوصل الغضب حنجرتي واختنقتُ من شعوري الدائم في مراقبة نفسي وأفعالي، مللتُ من محاولاتني في التأقلم مع كلامهم البشع، عمّن يرتكب هذا الذنب المضحك، إن كان ذنباً أساساً! فكرتُ ملياً لماذا عليّ أن أسير مثل الآخرين؟ لم لا ألتفتُ لنفسي وأقدّرُها وأقبلها كما هي عليه بكل مقوماتها وتفصيلها؟ لماذا يجب أن أعيش هذا الصراع في داخلي؟ قررتُ حينها وضع نفسي في المقدمة، وكلُّ ثغرةٍ أخرى تخصُّ المجتمع تأتي بعدي أنا، لا قبلي! اجتهدتُ كثيراً حتى أحببتُ شكلي و قوامي، أصبحتُ أكره المجتمع وأفكاره الغريبة، ولم أكن أنا السبب، بل المشكلة تكمن فيكم أنتم، وليس أنا، بدأتُ أشبكُ يدي عن سابق إصرار وترصدٍ وتصميمٍ قصداً خلف ظهري، وأمشي منحني الظهر، ولستُ نادماً على فعلتي بل بالعكس كنتُ مفتخراً ومعتزاً بما أفعله، أريدُ من الجميع أن يروني، وليتكلموا عني ما يشاؤون، فالجبل الثابت لا تهزه رياح المتخلفين والأغبياء، حتى أنني بدأتُ أتصوّرُ وأنشرُ صوري، فلتروني وتنادوني بما تريدون، أنا المتمردُ واللعينُ والضعيفُ، اتهموني بأشع التهم، تلك التهم

تشبهكم أنتم ولا تشبهني، تمثلكم أنتم ولا تمثلني، سأستفركم في كل مرة بتصرفاتي، فأنا أقوى من كل كلماتكم ونظراتكم، أقوى حتى من أفكاركم، تلك الأفكار التي زرعتموها في دماغي، ستروني أهاجمها كل يوم، فأنتم في طريق وأنا في الطريق المعاكس تمامًا وهو المسار الصحيح، وكل المسارات الأخرى فلتذهب إلى المنفى.

"المرحلة الثالثة" مرحلة التحرر الكامل: لم تعد هذه المعتقدات في ذهني أبدًا، تلاشت بشكل كامل ولم يعد لها وجود، كأنه كان لغزًا يربط دماغي وعندما أدركت حله اختفى، أصبحت عندما يأخذ جسدي تلك الوضعية لا أفكر بالموضوع ولم يعد يهمني، لم يكن لدي محاولات لاستفزاز الآخرين أو الاهتمام برأيهم، حتى أنني نسيت الفكرة تمامًا ولم تعد تشغل بالي، بدأت أتصرف على طبيعتي، بعد أن خرج هذا الصراع من داخلي وابتعد عني، أصبحت هادئًا غير أبه بتلك الفكرة من جذورها، وليس لدي مشاعر تجاهها، لا خوفًا ولا غضبًا، أضحك الآن على نفسي عندما كنت أهاجمها وأتمرّد عليها، أو أعاكسها حتى! أنا الآن على حقيقتي أكثر من أي وقت مضى، أتصرف من دون تكلف أو تصنع، إن شبكت يدي خلف ظهري كان بها، وإن لم أشبكهما فلا بأس أيضًا، فكل الأمور متشابهة تمامًا، تقبلت نفسي أقصى حدود التقبل، حلقت وارتفعت بذاتي فوق تلك المعتقدات، ولن أعود للنزول من أجلها مجددًا، ولن أتنازل لها ولو قليلاً، فهي أتفه من أن أتمرّد عليها، بعد الآن، لم تعد تستطيع التأثير عليّ بأي شكل من الأشكال، حاليًا أنا مليء بالسلام الداخلي، أنا الحر وأنا الحقيقي فقط وهذا يكفيني، وصلت لهذه المرحلة، وأنا ممتن جدًا أنني لم أبق عالقًا في أي من المراحل السابقة!

اعتماد نفسي

أدمنتُ التّدخينَ الذي أصبحَ جزءًا من روتيني اليومي، حاولتُ مرارًا وتكرارًا التّخلّصَ من هذه العادة، لكنني فشلتُ! كنتُ ضعيفًا أمامَ هذه السّيجارة، بالإضافةِ إلى طريقةِ استنشاقِ الدّخانِ ونفخة، تلك الحركاتُ كنتُ مغرمًا بها، وكأنّها أصبحتُ جزءًا من شخصيتي، ولغةٌ يتّبّعها جسدي للتعبير عن نفسه، أحيانًا كنتُ أشعرُ أنّ هذه السّيجارة التي تُعتبرُ شيئًا بلا معنى، استطاعتُ أن تتحكّمَ بدماعي وتسيّرني كيفما تريدُ!

موعدُ السّيجارةِ بعدَ تناولِ الطّعامِ، أو بعدَ عملٍ مارسنهُ أو خطّةٍ نفذتها، هو شعورٌ مكافأةٍ بالنسبةِ لي، لكنني في النهايةِ تعبتُ من ذلك المصروفِ اليومي، إلى جانبِ أهميةِ صحّتي ونصائحِ أمي التي لا تنتهي، لأتوقّفَ عن التّدخينِ، بالطبع في النهايةِ قرّرتُ إنهاءَ تلكِ الحلقةِ وتدميرها، وإبطالِ هذه العادة التي لا تعودُ عليّ إلاّ بالأذيّةِ والضّررِ.

لا أنكرُ أنني عندما توقّفتُ، أصبحتُ حياتي فارغةً، لم يعد لديّ شيءٌ أفعله، ولا مكافأةً أعطيتها لنفسي، ولا الوقتُ توقّفَ كما كان يحدثُ عندما كنتُ أدخّنُ السّيجارة، أصبحتُ الأمورُ مستمرّةً فسارتِ الحياةُ بشكلٍ مملٍ، أكثرُ شيءٍ أزعجني أنّ كلّ مَنْ حولي كان يدخّن، وعلبُ التّبغِ تنتشرُ في كلّ مكانٍ، ومن السّهلِ الحصولُ عليها، فزادَ القلقُ في داخلي واضطربَ نومي، واضطرتُّ في النهايةِ أن أدخلَ حلقةَ إدمانٍ أخرى وهي وسائلُ التّواصلِ الاجتماعيّة، ورحتُ أضيعُ كلّ وقتي عليها! أعترفُ أنّ حلقةَ إدماني الجديدةِ كانتُ أقلَّ سوءًا من السّابقة، لكن مع ذلكُ إنني أرى وقتي يذهبُ بلا معنى، اعتدتُ تكرارَ هذا الأمرِ حتّى تخلّصتُ من هذا الإدمانِ أيضًا، بحذفِ تلكِ المواقعِ، بعدها أدمنتُ الأفلامَ ثمّ المسلسلاتِ، ومن ثمّ أدمنتُ على الكحولِ لفترةٍ صغيرة، ثمّ الأغاني ثمّ الكتبُ ثمّ الحفلاتِ والسّهرة، ثمّ عدتُ للتّدخينِ، وبعدها عدتُ وتركتُهُ، وأخيرًا أدمنتُ العملِ.

اليومِ، بعدَ محاولاتي في التّخلّصِ التّامِّ من كلّ ما هو شبيهةٌ بالإدمانِ، اكتشفتُ أنّه لا يوجدُ تخلّصٌ تامٌّ من الإدمانِ، نحنُ نعيشُ حياتنا لنستيقظَ ونذهبَ إلى العملِ، بعدها نتكاثرُ ثمّ ننامُ، وفي النهايةِ نموتُ بعدَ كلّ هذا

المملّ في حياتنا، لذلك أليس من حقّ الطّفلِ الذي في داخلنا، أن يدمنَ ولو قليلاً من التّسلية!

مشرّد

عدتُ من عملي إلى منزلي في الساعة الثامنة مساءً، العمل الذي لطالما أحببته، والمكان الذي لا أشعر فيه أنني أعمل، يشابه اللعبة المسلية بالنسبة لي، مثل لعبة كرة القدم، أو أي نوع من الفنون التي يستمتع بها الناس، لا أشعر فيه بالوقت، وكما يُقال: "عليك أن تجد نفسك في عمل ما تحبه" وبالفعل أنا وجدت نفسي به، فالشخصية المناسبة له تتوافق مع شخصيتي بشكل كبير، وكأنها أنا أو ربّما توأمي، ولا أنسى أنني وجدته بعدَ عناء سنواتٍ من البحث والتجارب الكثيرة.

وصلتُ إلى منزلي الجميل الذي اعتبره أجمل منزل في هذا العالم، فهو الموقع الأكثر أماناً في الكون بالنسبة لي، أكون فيه على حقيقتي بعيداً عن كل الناس وكلّ العيون، محاطاً بتلك الجدران التي تحميني من مصائب الخارج، صحيح أنه ليس كبير ولا يمتلك تصميمًا فخماً، ويقع في الطابق الثالث في بناءٍ يحتوي على أكثر من عشرة منازل، لكنه هادئ ودافئ ورائع.

استبدلتُ ملابسِي ثم بدأتُ بإعدادِ الطّعامِ والشرابِ مثل أيّ يومٍ عاديٍّ آخر، حيثُ لم أطبخ شيئاً جديداً، سأسخنُ الطّعامَ وأجلسُ لتناوله، لم أدعُ أحدًا لتناولِ العشاءِ معي، سأستمتعُ بالصمتِ والعزلةِ كأنني الوحيدُ في هذا العالم، فأنا الآن زعيمُ هذه المائدة، والبيتُ لي وأنا المسيطرُ والأقوى في هذه المملكة.

تناولتُ الطّعامَ وشربتُ التّيبيدَ الأحمرَ المرّ، فهو مشروبي المفضّل في الشتاء، لأنّه يعطيني القليل من الدّفءِ الوهمي، فخطرَ في بالي الاتّصالُ بعائلتي "أمي، أبي، إخوتي" لم أفكّر كثيراً في الموضوع، فنهضتُ وسارعتُ بالاتّصالِ بهم، كان عليّ أن أخبرهم لأطمئنّ على صحتهم، فلم أحدثهم منذُ يومين، وهم كلُّ ما أملك، كما أنّهم الأشخاصُ الوحيدون الذين كانوا معي في أسوءِ لحظاتِ حياتي على سطحِ هذا الكوكب، عندما وقف الآخرون من حولي بصفةٍ متفرّجين لا أكثر.

اتّصلت بهم وتكلّمت معهم، تحدّثنا عن أوضاع البلد الذي يعيشون به، حيث مع الوقت أصبحت أسوأ بكثير، وهذا السبب هو الذي جعلني أترك البلد وأسافر متأملاً بمستقبل أفضل، على الرّغم من كلّ الأسى الذي يعيشونه، مازالت الضحكة لا تفارق صوتهم، لربّما هي مجرد آلية دفاع يستخدمونها للهروب من ذلك الواقع الأليم، أو محاولة لنسيان تفاصيل الحياة المتعبة، أو حتّى من حبهم لي، ربّما لا يريدون منّي أن أحزن عليهم وأشغل تفكيري في معاناتهم، لأنني وحدي في الغربة، لذلك كان هدفي الأهم في هذه الحياة، هو نقلهم للعيش معي عندما أستطيع الوقوف على قدمي بقوة أكثر هنا.

عندما أنهيت التحدّث مع عائلتي، أسرعت في عجل لأخبر حبيبتي، الفتاة التي أشكر الله لأنه أهداني إياها، حيث يشعرني وجودها جانبي بالراحة التي لم أشعرها مع غيرها، عدا عن أنّها تفهم ما أخفيه من دون حتّى أن أنطق بحرف، حيث يمكنها قراءتي كأنّها ساحرة ووجدت في هذه الحياة من أجلي.

تبادلنا القليل من الرّسائل، وبدت حزينة يبتأبها القليل من مشاعر التوتّر والقلق، بسبب امتحانها الجامعي في يوم الغد، ومن عادتها أن تخاف كثيراً من الامتحان، وقبل أن أنهى مكالمتي معها، دعمتها وشجّعتها ونصحتها أن تنام باكراً، بعد أن درست وأنهت واجباتها على أكمل وجه.

جاء وقت النوم، فتمدّدت على السرير، وكنت شاكرة للحياة على ما أعطتني من نعم، ثم بدأت بالتفكير في أبشع الأشياء، فيما لو خسرت أهلي وعملي، ومنزلي وحب عمري، ماذا سيحدث لي؟ ربّما أفكر بأنانية وأفكر بذاتي فقط، أي أنّه لو فقدت أحبائي سأحزن على نفسي، إنّي أخاف على نفسي إن فقدتهم، وسيكون مستقبلي موحشاً وبائساً، الخوف شعور ينبهنا أنّنا نحن فقط في خطر! كي ننتبه على أنفسنا وعلى ما نملك، ثم لم أشعر كيف غرقت في نوم عميق، لم أسمع بعد لحظات إلا والمنبه يرن وقد صار الصباح.

استيقظت صباحاً بشكل اعتيادي، فتحت الهاتف النقال وأد بحبيبتي قد أرسلت لي رسالة وداع، بعد أن أبلغتني فيها بنيتها على الانتحار، فاتّصلت

بها عدّة مرّاتٍ لكنّها لم تردّ، ويبدو أنّها أنهت حياتها! وصلّني بعدها تنبيهة على الهاتف أنّ الوطن الذي أتيتُ منه إلى الغربة، قد حدث فيه زلزال، والمنطقة التي يقطنُ فيها أهلي هي مركزه! اتّصلتُ بهم في الحال، لكنّ ما من إجابةٍ أيضًا، انتبهتُ في وقتٍ لاحقٍ لرسالةٍ وصلت على بريدي الإلكتروني، كانت من الشركة التي أعملُ بها، أخبروني بها أنّهم استغنوا عن خدماتي لأسبابٍ تتعلّق بوضعي القانوني في البلد! لم يمض وقتٌ قليلٌ كنتُ فيه متوتّر الأعصاب، وإدّ بجرس المنزل يُقرع، فتحتُ البابَ مسرعًا فتفاجأتُ برجالِ الشرطة، أخبروني بأنّه يجبُ عليّ إخلاءَ المنزل في مدّة يومين، وسيتمّ الحجزُ على كلّ أملكٍ في البنك، وستُسحبُ الهوية مني، لأنني متهمٌ بالخيانة، ولا يحقُّ لي العملُ أو السّفَرُ إلى الخارج! في وقتٍ لاحقٍ عرفتُ أنّ عائلتي وحبيبتني قد ماتوا، ولا يمكنني العودة إلى وطني لتوديعهم لأنّي هربتُ منه أساسًا! لقد انهارتُ كلُّ حياتي أمامَ عيني، وسوف أتحوّلُ إما لمشردٍ مجنون، أو ربّما عليّ أن أقدمَ على الانتحار، لأنّي فقدتُ كلّ شيء، نعم بمعنى الكلمة، كلّ شيء!

ها أنا بعدَ شهرٍ من كلّ ما حدثَ معي، عبارةٌ عن مشردٍ ضعيفٍ يعيشُ على ما يتبرّعُ له النّاسُ من المال، بيتي الشّارع، ولا أملكُ سوى شيءٍ واحدٍ وهو جسدي! لا علاقاتٍ ولا مال، أملكُ العدمَ فقط، أتعرّضُ لأقسي وأبشع أنواع الحياة، أنا الإنسانُ الذي واجهَ كلّ مخاوفه لأنّه عاشها، حتّى الموتُ لم أعد أخافه، بل أصبحتُ أتمناه أحيانًا، لقد تحرّرتُ من كلّ الخوفِ في داخلي، ليس لديّ أيُّ حبلٍ أتعلّقُ به، أه كم أنا حرٌّ اليوم، ربّما الحرّيّة لا تعني السّعادة دائميًا، ربّما لكي تكونَ حرًّا بشكلٍ مطلق، عليك أن تدفعَ الثّمَن!

المنتصر

لديّ حفلةٌ في المساء، حفلةٌ تجمعُ طلابَ الجامعةِ التي أدرسُ بها، في منزلٍ أحدِ زملائنا، ولا شكَّ ستكونُ جميلةً، جهّزتُ نفسي من الخارج والداخل، اشتريتُ ثيابًا جديدةً خصيصًا لهذا اليوم، تحضّرتُ معنويًا أيضًا، سأنتصرُ اليومَ مهما حدث.

دخلتُ إلى مكانِ الحفلةِ، وألقيتُ التّحيّةَ على بعضِ الأصدقاء، ثمّ وقفتُ في إحدى الزّوايا وحيدًا كعادتي، أخذتُ علبةَ السّجائرِ الخاصّةِ بي، وأخرجتُ سيجارةً منها، بينما كنتُ أراقبُ إحدى الفتياتِ الجميلاتِ التي كانتُ تدخُنُ أيضًا وتشربُ البيرةَ، وتتكلّمُ وتضحكُ مع أصدقائِها، فجأةً غرقتُ في التّفكير: ماذا سيحدثُ إنْ ذهبْتُ إليها؟

كيف أتحدّثُ معها من دون أن يرتجف صوتي أو أبدو غريبَ الأطوار؟ إنْ حدتْها ربّما تفهمني بشكلٍ خاطئ؟ قد تردُّ عليّ بطريقةٍ سيئة، أو توجه لي إهانةً لن أقدّر على تحمّلها، يمكنُ أن أصبح أضحوكةً للجميع، وعندها سيصيّبني الإحراج، وربّما أبكي! قد تظنُّ أنّي أكذبُ لأتقرّبَ منها ولا يعجبها أسلوبِي، ربّما جميعُ الحاضرينَ أيضًا سيظنّونَ هكذا.

لعلّها ستجاهلني، عندها سأرتبكُ وأتمنّى أن أختفي تمامًا، بلّ وسأندمُ كثيرًا على ما اقترفتُ يداي.

قد تعتقدُ أنّي فقيرٌ ضعيفٌ ولا أملكُ شيئًا، أو من الممكن أنّها لاحظتُ وجودي، وهم يتهمّونَ عليّ الآن، لأنني أبدو شخصًا وحيدًا انطوائيًا، لا يستحقُّ أن يكونَ موجودًا هنا!

من الممكن أنّني لست مناسبًا لها، فأنا لا أشبهها إطلاقًا، اختلفُ عنها بكلِّ شيء، في شكلي وطريقةِ كلامي وشخصيتي، بلّ وحتى في مشيتي أيضًا! سيكرهني الجميعُ وسأصبحُ ضحيّتهم، عندها سأضطرُّ للخروج من هذه الحفلةِ التي أخطّطُ لها منذ أسابيع وشهور، وسأدمرُ كلَّ شيء.

لماذا تمتّ دعوتي إلى مثلِ هذا الحفلِ، أشعرُ بأنّني غريبٌ ومختلفٌ عن الجميع؟

لا يوجدُ غيرُها يدخُنُ هنا، لقد راقبتُ الجميع، الحقُّ كلُّه يقعُ على عاتقي، أنا من ينسى أغراضه في المنزلِ بشكلٍ دائمٍ، ولا يوجدُ أحدٌ يبيعُ شيئاً الآن، فالوقتُ متأخّرٌ.

هل عليّ ألا أدخُنُ؟ لكنني أشعرُ برغبةٍ كبيرةٍ تشدّني للتدخين، ماذا أفعل! أنا في مأزقٍ، أحياناً ما يريدُه الإنسانُ يكونُ موجوداً لدى الآخرين، عندها يصبحُ مرغماً على التّواصلِ معهم، لكنني خائفٌ من شعوري عندما أتعرّضُ لموقفٍ محرّجٍ.

ماذا يحدثُ لي! قرّرتُ اليومَ أن أنتصر، حقاً يجبُ عليّ أن أنتصر، إنّ الشخصَ الوحيدَ الذي لا يتعرّضُ للانتقاد، هو الذي لا يفعلُ شيئاً. ذهبتُ إليها أخيراً، على الرّغم من أنّ قديمي لم تساعداني على المشي أساساً، ومع ذلك كنتُ أحاولُ تقويةَ نفسي، كي أتمكّن من الحصولِ على ما أريدُ.

ألقيتُ السّلامَ عليها وعلى أصدقائها وقلتُ لها: هل لك أن تشعلي لي هذه السّجارة؟ فأنتِ الوحيدةُ التي رأيتهُ تدخُنُ هنا! أقدمُ لك اعتذاري الشديداً، لكنني نسيتُ ولّاعتي في المنزل، أتمنّى ألا أكونَ قد أزعجتُك، وأنا شاكرٌ لك بكلِّ الأحوال، إنّ أشعلتِ السّجارةَ لي، أم لم تشعليها.

رفعتُ حاجبيها، ثم ارتسمتُ الحيرةَ على وجهها وأجابت: أهلاً وسهلاً، بالتأكيدُ تفضّل، ورفعتُ يديها مُمسكةً بولّاعتها وأشعلتِ السّجارةَ لي. أنا: أشكركُ جزيلَ الشكرِ على ما قدّمتِ اليومَ لي، لقد جعلتِ يومي أفضل، وأعيدُ وأكرّر، أعتذرُ إنّ أزعجتُك. هي: أهلاً وسهلاً.

عدتُ إلى زاويتي وأنا أقولُ في نفسي، نعم لقد فعلتها وانتصرت.

مزاج

البارحة كنتُ سعيدًا جدًّا، شعرتُ بأنني صاحبُ مرتبةٍ عاليةٍ، وأحلامي كُلِّها على وشكِ التَّحقُّقِ، كما أنني حلقتُ شعري، فبدوتُ وسيماً وجميلاً، إنجازاتي كبيرةٌ، وحتَّى صوتي فجميلٌ ومرنفعٌ، ملابسي رائعةٌ نسقتُها بعنايةٍ شديدةٍ، وضعتُ العطرَ الذي أفضِّلُهُ، كنتُ أملكُ الكثيرَ مِنَ الأموالِ في جيبِي، والأمورُ كانتُ تسيرُ بطريقةٍ سلسةٍ ميسرةٍ، ولا توجدُ صعوباتٌ أو عوائقُ في طريقي، أعطاني والدي السَّيَّارةَ كي أذهبَ وأقابلَ أصدقائي، وعندما قابلتهمُ صافحتهمُ بحرارةٍ وجلستُ بثقةٍ، كنتُ صاحبَ شخصيَّةٍ مريحةٍ تنتشرُ السَّعادةُ والبهجةُ أينما وُجدتُ، لم يكنُ في تفكيري سوى اللَّحظةِ التي بين يدي، كيفَ أعيشتُها بحبٍّ وتمعُّنٍ، كنتُ أيضاً صاحبَ التَّكثُّفِ الوحيِّ والفيلسوفِ والمثقفِ والمتحدِّثِ والعالمِ والباحثِ، لاحظَ الجميعُ جمالَ شخصيَّتي وقوَّةَ حضورِي ولغةَ جسدي المثيرةَ للدَّهشةِ، كلُّ مَنْ كانَ معنا أرادَ أنْ يصبحَ صديقي ليقربَ مِنِّي أكثرُ، حتَّى أنا أحببتُ نفسي وعشقتها ووقعتُ في غرامها.

أمَّا اليومُ، فقد تغيَّرَ الوضعُ وانقلبتِ الأحوالُ! جفَّتْ كلماتي ونقصتْ تعابيري وجهي، خرجتُ مِنَ المنزلِ وأنا غيرُ راضٍ عن شكلي وثيابي وحتَّى عن نفسي، كنتُ لا أرى أمامي غيرَ المشاكلِ، وحتَّى لو لم تكنُ موجودةً كنتُ أتوقَّعُ حدوثها، ولا أنتبهُ إلاَّ للجزءِ الفارغِ مِنَ الكأسِ، كنتُ خائفًا مِنَ المستقبلِ وحزينًا مِنَ الماضي، ولم أعطِ أيَّ نظرةٍ للحاضرِ ولو خاطفةً! كانَ الهَمُّ ظاهرًا في عيوني والبؤسُ مالكاً قلبي، أمَّا الحياةُ فأصبحتُ كُلِّها سوداءً في دماغي، ذهبتُ سيرًا على الأقدامِ لأقابلَ أصدقائي، رغمَ الجوِّ العاصفِ الذي زادَ الطَّيْنَ بلَّةً، جلسْتُ كأنني لستُ معهمُ وغيرُ موجودٍ، لم أضحكُ على أيِّ نكتةٍ قالها أحدٌ منهمُ، ولم أبتسمُ في وجههمُ، كنتُ غارقًا في التَّفكيرِ ولم أنسجمُ مع مَنْ حولي، حتَّى ردودُ أفعالي كانتُ غريبةً وأحياناً وقحةً، هذه المرَّةُ، لاحظَ الجميعُ انزعاجي وسخطي، فسألوني ما بكُ ألاَّ يعجبكُ الجلوسُ معنا؟ ربَّما هكذا همُ شعروا، حتَّى أنَّهم ابتعدوا عني بعدَ أنْ أصابهمُ المللُ من وجودي، فاتَّهمني صديقي بأنِّي خجولٌ، ونادتني صديقتي

بالحزين، أما الآخرُ فنعتني بالمتكبر! في الحقيقة، أنا مزيجٌ من كلِّ هذه الصفات، ولا يمكنُ لصفةٍ واحدةٍ أن تبقى مستمرةً معي في كلِّ الأوقات، غيرُ ممكنٍ وضعي في قالبٍ أو صندوقٍ واحدٍ، فأنا الحزينُ والسعيدُ، المتكبرُ والمتواضعُ، القويُّ والضعيفُ، الخجولُ والجريءُ، المحترمُ والوقحُ، أنا الخطأُ والصوابُ! في الحقيقة... أنا إنسانٌ.

تجربة

باتفاق عالمي، تم إجراء تجربة على البشر، وذلك بنشر أخبار في كل وسائل الإعلام، أكدوا فيها بأنه لم يبق حياة الإنسان سوى يوم واحد فقط، لأن كوكباً كبيراً سيصطدم بالأرض وسيحى الحياة عليها، لدرجة أن كل الكائنات الحية على كوكبنا سوف تختفي، كما أنهم أثبتوا بطريقة تجعلها تبدو صادقة ولا مجال للشك فيها، فصدق الخبر كل إنسان في هذا العالم وأمن به، كان الهدف مراقبة سلوك الناس في اليوم الأخير لهم. ما حدث كان متوقعاً، فقد انتشر الدعر بشكل مخيف في البداية، بسبب الإنكار والرغبة بالبقاء على قيد الحياة، لكن بعد ساعات، عندما بدأ البشر يصدقون الخبر ويتقبلون هذا الواقع الذي فرض عليهم تغييراً في سلوكهم بشكل غريب.

لم يذهب أحد إلى عمله في هذا اليوم، كل شخص في هذا العالم سامح أعداءه، حتى أن الكثير منهم ذهبوا وأخبروهم بذلك، لم يبق إنسان إلا واعترف لمن يحبه بمشاعره، كان الحب يطوف في الساحات وفي كل مكان، فلم يبق لنا سوى ساعات قليلة يمكن أن نعيشها مع من نحب، لم نخبئ في داخلنا تلك المشاعر ووتركها محفوظة ونغلق عليها في قلوبنا؟ أحرقوا المال أيضاً بعد أن كان البشري يفني عمره من أجل جمعه وتكديسه! فقد اكتشف مؤخرًا أنه ليس بهذه الأهمية، بالإضافة إلى توقفهم عن السعي وراء الشهرة وكل ما فيها، إذ لم ينشر أحد صورة أو منشورًا على حسابيه في مواقع التواصل.

كما أنهم تخلوا عن السلطة وبشاعتها، إن ما الفائدة منها بعد الآن؟ الكل يريد أن يمضي ما تبقى له في سلامٍ وطمأنينة مع من يحبهم، لذلك انتشر الإيمان بالرب بشكل كبير، الجميع حاول التقرب من ربه، كل منهم بحسب دينه، لم يحاول أحد أن يسرق أو يقتل أو يرتكب أي جرم مهما كان صغيراً، فتحوّلت الحياة إلى جنّة، وكأنا نعيش في كوكب الأحلام، أصبحت الأخلاق في أعلى مراتبها، وشعور الخوف تلاشى عندما عرفنا بأن مصير جميعنا الزوال.

ربّما الجشعُ والحقْدُ والكراهيةُ التي تنخرُ في مجتمعاتنا اليوم، هي من
إيماننا بفكرة أنّنا سنبقى إلى الأبد.
إنّه أجملُ يومٍ في تاريخنا.

افتراض

من سنتين نشرت ورقة بحثية تحمل فرضية جديدة في الفيزياء، ومنذ ذلك الحين وأنا أنتظر أن يتم إثباتها لتتحول من فرضية إلى نظرية. لقد مللت هذا الانتظار، جرّبت كل الطرق محاولاً إثبات وجهة نظري، وحتى العلماء لم يجدوا طريقة لإثباتها إلى الآن. من سنتين كاملتين وأنا في حالة من التأهب والانتظار، لقد تحولت حياتي إلى محاولة لإثبات وجهة نظري، أما بقيّة الأشياء الأساسية في حياة أي إنسان، صارت جانبية بالنسبة لي.

ليتني لم أفترض أي شيء!

تجنب

في حيتنا لي جارة تُعتبرُ كاملةَ الجمال، هي فتاةٌ تصلحُ لتكونَ عارضةً أزياءً، عيونُها واسعةٌ خضراءُ، ووجهُها أبيضٌ متناسقٌ بشكلٍ لا يُعقل، أنفُها صغيرٌ وشفَتَاها مرسومتان باللون الأحمر، يمكنُ ملاحظتهما من مئة متر، حتّى أنه يوجدُ تناسقٌ هندسيٌّ كبيرٌ واضحٌ بينَ جهتيّ وجهها، شعرُها مسترسلٌ كثيفٌ وحواجبُها أيضًا، أمّا طولُها فكان مناسبًا لأيّ شابٍ يمكنُ أن يقرّرَ الارتباطَ بها، ليستُ قصيرةً ولا كثيرةً في الطول، إنّما كان قوامُها معتدلاً، جسدها مصمّمٌ بدقّةٍ فائقةً، حتّى صوتُها يدخلُ إلى القلبِ بسرعة، حيثُ تشعرُ وأنتُ تسمعهُ بالهدوءِ والطمأنينة، وكأنّها تنفّوه بأحاسيسٍ و مشاعرٍ لا بكلماتٍ عادية، إنّها أجملُ فتاةٍ شاهدتها في حياتي، لدرجةٍ أنّ كلّ أصدقائي راهنوا على ذلك، لأنّها لم تكن فتاةً عاديةً، بل كانتُ أجملُ أنثى في كلّ مدينتنا، وإضافةً لكلِّ ذلك، شبابُ المدينة كانوا يتمنّونَ كلمةً منها أو حركةً واحدةً.

لم يبقَ شابٌ إلّا وحاوَلَ التكلّمَ معها، والسِّباقُ من أجلِ الفوزِ بها كان شرسًا، في محاولةٍ لجعلها الحبيبةَ أو حتّى الزّوجةَ المستقبليةَ، لكنّ على الرّغم من كلّ ذلك، هي لم تكن تعطي أيّ ردٍّ لأحد، وإن حدثتُ وأجابتُ كان الردُّ باردًا جافًا، تُشعرُ من أمامها أنّها ليستُ مهتمةً به، أو لا قيمةً لوجوده، حتّى ظنّ كلّ من في المدينة أنّها مرتبطةٌ أو في حياتها شابٌ فاحشُ الثّراء، طويلُ القامةٍ مفتولُ العضلات، وأغلبُ الظنّ أنّه من خارجِ المدينة، فلم يرها أحدٌ مع هكذا شابٌ.

تلك الفتاةُ المتكبرةُ الحسنة، كانت تملكُ سرًّا أرادتُ أن تحبّبتهُ عن الجميع، في الواقعِ هو لم يكن سرًّا، هو وهمٌ كبيرٌ بداخلها حتّى عاشتهُ وتحوّلَ لحقيقةٍ تمسّكتُ بها بيديها وأسنانها.

صدفَ أن قالتُ لي عدّة مرّاتٍ أنّها غيرُ جميلة، وجمالُها هذا كلّهُ بسببِ مستحضراتِ التّجميل، وهي تخافُ أن ترتبطَ بشابٍ، لأنّه إنّ كشفتُ حقيقةَ وجهها سيهجرُها بعدَ أن تكونَ قد أحبّتهُ.

مع أنّي رأيتها من دُونِ تلك المستحضرات، وكانت أجملَ بكثيرٍ أيضاً، لكنّ على الأرجح، هيَ لم تصدِّقْ نَفْسَها الحَقِيقَةَ.

تشابه

منذ صغر سنِّي كنتُ أشعرُ بتميُّزي في كلِّ شيءٍ، من الشكْلِ إلى الشَّخصيةِ إلى الهواياتِ والمواهبِ، لم أشعرُ للحظةٍ واحدةٍ بأنِّي أشبهُ الآخرينَ، كنتُ مختلفًا دائمًا، مميِّزًا وغريبًا، كلُّ ذلك أعطاني شعورًا جميلًا وفخرًا كبيرًا في داخلي، حتَّى وصلَ بيَ الحدُّ إلى الغرورِ، والمُفْرَبونَ مِنِّي أكْدوا لي هذه المعلومةُ، ذلك زادَ من تشبُّثي بهذه الفكرةِ، حتَّى ظننتُ أنني لا يمكنُ أن أعيشَ إلَّا وأنا مميِّزٌ أو مختلفٌ.

أسلوبُ الحياةِ العاديِّ والطبيعيِّ لا يعنيني، وكنتُ أراه شيئًا يصعبُ عليَّ أن أتقبَّلهُ أو أعيشَه.

في يومٍ غريبٍ استيقظتُ في الصِّباحِ الباكرِ، وبعدَ أن غسلتُ وجهي وتناولتُ إفطاري، لبستُ ثيابي المميِّزةَ وفتحتُ بابَ المنزلِ ذاهبًا إلى عملي كالعادةِ، لكنَّ ما شاهدتهُ كان غريبًا جدًّا، كلُّ مَنْ في الطَّرِيقِ كان يشبهُني تمامًا وكأنَّهم أنا، ذهبتُ إلى الشركةِ التي أعملُ بها، الأمرُ ذاتهُ أيضًا، كلُّ زملائي كانوا يملكونَ شكلي وصوتي وسلوكي ونوعَ الألبسةِ التي ألبسها، وعلى ما أظنُّ حتَّى مستوى ذكائهم كان بمستوى ذكائي، وذوقهم في الموسيقى وهوايتهم ودينهم، كلُّ شيءٍ تمامًا كان يشبهُني، اختلافهم عني فقط، هو أنهم كانوا يمتلكونَ أسماءَ و أعمالًا أخرى.

جُنَّ جنوني ممَّا يحدثُ معي، ومع استمرارِ في البحثِ، كانتِ الكرةُ الأرضيةُ كلُّها عبارةً عن أشخاصٍ هي أنا! بحثتُ كثيرًا لأعرفَ السَّببَ، لأنني لم أكنُ لأتقبَّلَ الموضوعَ، ولكن لا فائدةَ من كلِّ ذلكِ.

خطرَ في بالي أن هناك مؤامرةً كونيةً ضدِّي، وأن كلَّ النَّاسِ كانوا أداةً في هذه المؤامرةِ، لكنَّ حاولتُ رفضَ هذه الفكرةِ، لأنَّها كادتُ أن تقودني إلى الجنونِ، لذلك قرَّرتُ المقاومةَ، غيرتُ طريقةَ لبسي وقصَّةَ شعري، وحتَّى ديني غيرتهُ، لكنَّ كلُّ محاولاتي فشلتُ فشلًا ذريعًا، كنتُ أعيشُ في قلقٍ دائمٍ، كيف عليَّ أن أعودَ مميِّزًا ولا أشبهُ أحدًا، كي أشعرَ أكثرَ بحبِّي لنفسِي، وأستعيدَ قوتي وثقتي بذاتي، حتَّى تعودَ الحياةُ جميلةً وممتعةً لها

معنى كما كانت من ذي قبل، كنت أحب اختلافي وأعشقهُ، لكن ماذا الآن؟ كل الناس مثلي، تحولت لشخصٍ عاديٍّ ليس له أي أثر، إن عاش أو مات لا أحد سيذكره، للأسف لم أنجح في وضع حدٍ لذلك، ويبدو أن الموضوع سيستمر إلى نهاية حياتي، فأكبرُ مخاوفي تحققت، وصارت حقيقةً علي أن أتعايش معها وأتأقلم.

في النهاية، دخلتُ في مرحلة التَّقبُّلِ والهدوءِ والاكْتِنَابِ أيضاً، فالأفكار الانتحاريةُ صارتُ تجولُ في دماغي، بينما كان تميّزي هو من يمدني بالسعادةِ والمتعةِ، صحيح أن العالمَ حالياً أكثرُ سلاماً من قبل، فالجميعُ يشبهُ بعضه، ولن يعودَ هناك تمييزٌ باللونِ أو الشكلِ أو الدينِ، وأصبحَ أفضلُ للجميع، لكنه ليس أفضلَ بالنسبةِ لي، فقد كان أجملَ من قبل، ربّما هو مريحٌ لكلِّ الناس، لكني أراه مملاً، لقد كان الاختلافُ هو من يعطيه طاقةً وقوةً، أما الآن فتحوّلَ إلى مكانٍ كلُّه مللٌ، فقدَّ الإثارةَ والتشويقَ والأشياءَ التي كان يمتازُ بها، للأسف لقد اقتنعتُ الآن أنهم ليس هم من يشبهونني، أنا في الحقيقة من أشبههم، أنا مثلهم ولستُ شخصاً غريباً عنهم.

لم يعد العالمُ لي فقط، بل اتّضحَ أنه للجميع.

Strong independent woman

منذ رأيتها كانت قويةً وجذّابةً، لم يكن هناك أيُّ عيبٍ فيها، لكنّي أعرف حقَّ المعرفة، منَّ المستحيلِ عدمُ وجودِ عيبٍ في شخصٍ ما، أو حتّى نقاطِ ضعفٍ، فهذا منافٍ للطبيعةِ البشريةِ من الأساس، كما أنّني أدركُ أنّها البداياتُ وحلاوتها وسحرُها، وهي تكون هكذا دائماً، كلّ شيءٍ فيها متكاملٌ، فالطقسُ جميلٌ والحياةُ يغمُرُها اللطْفُ والسعادةُ، حتّى الأحاديثُ تحرّكُ فيك الفضولَ، فتحاولُ اكتشافَ منَ أمامك وبماذا يفكرُ؟ لكنّك تتجاهلُ فكرةَ أنّك ستجدُ أشياءً ترعجُك، فنحنُ مصمّمونَ بشكلٍ أو بآخر لنبحثَ عمّا يزعجنا، مصمّمونَ أن نجدَ ولو نقطةً واحدةً في هذا العالمِ، لنكتشفَ فيها مشكلةً ثمَّ نشغلُ دماغنا بكيفيةِ إصلاحها، ومع ذلك بالنسبةِ لي أكبرُ مشكلةٍ هي محاولةُ ألا يكونَ الشخصُ الآخرُ معي على طبيعتهِ، يشعُرني هذا بحدِّ ذاته بالخيبةِ، فلم تُريني حقيقتها بوضوحٍ، وهذا بحدِّ ذاته جعلني أشعُرُ بجهليّ الكاملِ وعدمِ معرفتي لتلك الفتاةِ التي أمامي.

كانت تحاولُ جاهدةً أن تُظهرَ لي عدمَ امتلاكها لنقاطِ ضعفٍ أبداً، مع إدراكي الكاملِ بأنّ هذا مستحيلٌ، فمن الواضحِ إخفاؤها الدائمُ لهذا الأمرِ، بالإضافةِ لذلك لم أرها في يومٍ حزينةً.

حتّى أنّها إذا شعرتُ بالحزنِ الذي لا يمكنني معرفةً مصدره مهما حاولتُ، يعتليها الغضبُ والحقدُ! وتُشعُرني بأنّي عدوُّها وأرغبُ بالنيلِ منها، كانت تحملُ نظرةً غيرَ متسامحةٍ لكلِّ ما في هذه الحياةِ، وتصرُّ بشكلٍ مستمرٍ على أنّها قويةٌ ولا شيءٌ يستطيعُ إضعافها أو هزيمتها، وتريدني بعد ذلك أن أحتويها؟!

طلبتُ منّي أن أكونَ بيتها، ولا تريدُ أن تكونَ حقيقيةً في داخلها! ألا تعلمين أننا نحنُ جميعاً نقاتلُ في الخارجِ؟ ثمَّ نعودُ إلى بيوتنا لنبكي! لذلك هل يمكنك أن تكوني (my home)؟

خطأ

ارتكب "فيليب العجوز" في ماضيه خطأ سخيًّا لا يمكن له أن يتحمَّل من بعده هذه الحياة المأساوية التي يعيشها حاليًّا، حيث سقط إحدى المرّات في الطريق، وذلك التّعثر البسيط تمّ تصويره بالصدفة، من قبل أحد الأشخاص المارين، ثم نشره على وسائل التواصل الاجتماعي، فشاهده ملايين الأشخاص، أصبح فيليب بعدها مدعاةً للسخرية في كلِّ مكان، لكنّه لم يستطع التأمّل مع هذا الحدث، وجعلهُ ينظرُ لحياته نظرةً بائسةً متشائمةً، فكّر فيها بالانتحار عدّة مرّات، فما الخطأ الشنيع والبشع الذي قام به حتّى يُعاقب هذا العقاب؟

كان يلقي اللوم على نفسه دائمًا، فهو لم يكن ينتبه لخطواته بشكلٍ جيّد، بل يمشي من دون النّظر أمامه، وقد تعثّر سابقًا عدّة مرّات، لكن في هذه المرّة تمّ تصويره وفضحه! بعد هذه المشكلة أصبح يحرك خطواته بحذرٍ وترقبٍ شديدين، ولكن بعد ماذا؟ لم يعد يفيد ذلك شيئًا الآن.

جلُّ ما كان يتمنّاه فيليب من عمره، هو أن يعود به الزّمان ليغيّر ذلك الحدث، وبذلك ستختلف حياته وتعود طبيعيّةً مثل أيِّ شخصٍ آخر، فينسى التّاريخ والماضي، وجميع النّاس ينسوه أيضًا.

في الوقت نفسه كان يملك صديقًا عبقريًّا حاصلًا على جوائز عالمية بفضل ذكائه الفذِّ، وبالفعل أخبر العبقريّ وأطلع صديقه فيليب على اختراع حديث، وهو آلة للسّفر عبر الزّمن، هذا الاختراع هو من سيغيّر حياة فيليب ويحوّلها من ظلامٍ دامسٍ إلى نورٍ و صباحٍ ساطع، من قصّة مثيرةٍ للشّقة، إلى قصّة يتمكّن فيها البطل من تحقيق المستحيل، عندما علم فيليب بالخبر، أبصر الأمل وإمكانية تغيير الماضي، الذي يمكن أن يصنع به مستقبلًا جديدًا، و يتخلّص من تلك المشكلة التي عكّرت صفو ماضيه وحاضره ومستقبله.

سافر فيليب عبر الزّمن إلى ذلك اليوم المشؤوم، ليقابل نفسه في الماضي ويطلب منها الانتباه على خطواته كي لا يسقط، فذلك السقوط يعني تدمير حياته كلّها، ونهاية كلّ شيءٍ وبداية العذاب والألم الأبدي، وبالفعل حدث ما

يُفترضُ أن يحدث، قابلَ نفسه في الماضي وخاطبها بقوله: انتبه يا فيليب وأنت تسيّر، فطريقة مشيتك تلك قد تودي بحياتك، وستسقط سقوطاً محرّجاً جداً.

ردّ فيليب الشاب: من أنت لتكلمني وتنصّني هذه النصيحة، هل تعرفني؟

فيليب العجوز: أنا فاعلٌ خيرٍ فقط، وكلُّ ما أريده هو مصلحتك. فيليب الشاب: شكراً لك على هذه النصيحة الغريبة! لكن حسناً سأعملُ بها. ابتسم فيليب العجوز، لأنه أدرك بأن فيليب الشاب سيعملُ بالنصيحة، إذ من طبيعته تقبُّلُ الانتقاد، وكان يحاولُ بشكلٍ دائمٍ تغييرَ وتصحيحَ أخطائه. وقف فيليب الكبير يراقبُ فيليب الشاب وهو يمشي، في تلك اللحظة نفسها التي توقّف عندها الزمنُ سابقاً، كلُّ شيءٍ سارَ على ما يرامٍ ولم يتعزّرُ ويسقط، بل أكملَ طريقه وكان شيئاً لم يكن، فخلّت كلُّ مشاكلِ فيليب الآن. عاد فيليب بعدَ سفره بين الأزمان، إلى وقته الأساسي وعمره الأصلي وإلى أيامه الحقيقية، تلك المشكلة اختفت تماماً من كلِّ وسائلِ التواصل، ولم تعد موجودةً لا في ذهنه ولا في أذهان الناس، فتلاشت تلك العضلة كأنها لم تحدث أبداً، ولم يعد يذكرُ فيليب لماذا سافرَ عبرَ الزمن، وكان شيئاً لم يكن، انحلت الأمورُ واستتبَّ الوضعُ وعادت الحياةُ طبيعته، وسارت الأوضاعُ بشكلٍ سليمٍ خلّو كالعسلِ وأسهل من قبل.

في يومٍ من الأيام، كان فيليب يسيرُ في أحدِ الشوارع عانداً إلى بيته، كانت مشيته قد عادت كما كانت في شبابه قبل ارتكابه ذلك الخطأ، فسقط مرةً أخرى، وللأسف سجّلتِ الحدثُ آلةُ تصويرٍ في إحدى مداخلِ الأبنية التي سقط أمامها فيليب، قام صاحبُ هذه الآلة بنشرِ المقطع المُصوّرِ مرةً أخرى في وسائلِ التواصل الاجتماعي، فعادت المشكلة بشكلٍ أقطع، إذ كان أكبر من ذي قبل، والمصيبة باتت أصعب أيضاً، فعاد البؤس والحزن كما كان!

خيال

الشابُ سَمِيرٌ لديه خيالٌ يَفاَسُ بالصَفَرِ، إذْ لا يوجدُ لديه خيالٌ بالمَطلقِ، هكذا خُلِقَ وهكذا يعيشُ وسيعيشُ سنواتِهِ القادمةً، الأمرُ يبدو غريباً ولكن هذه هي الحقيقة، دعونا نتخيلُ حجمَ المعاناةِ التي يمرُّ بها سَمِيرٌ، هو لا يستطيعُ رسمَ أيِّ شيءٍ لأنهُ لَنْ يَتِمَكَّنَ مِنَ التَّخِيلِ كي يرسمَ! يستطيعُ فقط نقلَ ما هو أمامه، أيضاً لَنْ يَتِمَكَّنَ مِنَ الكتابةِ، لأنهُ مِنَ الصَّعْبِ عليه أَنْ يتخيلَ حالةً ما أو قصةً أو حتّى روايةً ليكتبها، مِنَ المستحيلِ أَنْ يصبحَ ماهراً في أيِّ نوعٍ مِنَ الرِّياضةِ، لأنَّ عليه أولاً أَنْ يتخيلَ حركةً ما ليقومَ بعدها بالتدربِ عليها، أما من ناحيةِ الذِّكاءِ الاجتماعيِّ فقد كان ضعيفاً، لأنَّهُ يجبُ عليه أَنْ يتخيلَ نفسه مكانَ شخصٍ آخر، أو يشعرَ بمشاعره حتّى يتكلّمَ مع النَّاسِ بشكلٍ صحيحٍ، فهذا الشَّيءُ أصعبُ من أَنْ يصبحَ رسّاماً أو كاتباً محترفاً، حتّى في الحبِّ، كان الأمرُ بالنسبةِ إليه مُعقّداً، فكيف يَتِمَكَّنُ من أَنْ يعيشَ هذا الوهمَ من دونِ خيالٍ واسعٍ يأخذُهُ إلى أماكنٍ غيرِ موجودةٍ في الواقعِ؟

مستقبلاً لَنْ يتخيلَ نفسه في أيِّ مكانٍ، ففقدَ بذلك الأهدافَ والأحلامَ. أن يكونَ مهندساً؟ ذلك لَنْ يصلحَ أبداً، ولا حتّى موسيقياً أيضاً فهذا الأمرُ مِنَ المستحيلِ، في الفيزياءِ؟ هذا أشبهُ بتوقعِ رضيعٍ لا يبلغُ عمرُهُ عدّةَ أيامٍ أن يكونَ "ألبرت أينشتاين" في التَّسويقِ؟ لَنْ يَتِمَكَّنَ من وضعِ خطةٍ تسويقيةٍ من دونِ خيالٍ، كذلك مسألةُ البيعِ والشِّراءِ صعبةٌ عليه، فهي تحتاجُ لتنبؤٍ بالمستقبلِ، ولمهاراتٍ اجتماعيةٍ لا يملكها، لا في الرِّياضياتِ ولا التَّمثيلِ ولا الإخراجِ ولا الكيمياءِ ولا التَّدريسِ، ولا في أيِّ شيءٍ آخر. إنَّ الخيالَ جزءٌ من التفكيرِ لدى الإنسانِ، وهو من ميزاته التي يَتَميِّزُ بها عن الحيواناتِ الأخرى، نستعملُهُ كلَّ يومٍ ونعيشُ ونتعيشُ معه في واقعنا وفي أحلامنا حتّى، وكلُّ هذه الحضارةِ وهذا التَّطوُّرِ الذي وصلنا له هو جزءٌ من الخيالِ البشريِّ العظيمِ، لذلك كانت قدراتُ سَمِيرِ الذَّهنيَّةِ ضعيفةً جداً لأنَّ مخيلتهُ ضحلةٌ، وإذا أردتَ شتيمةً شخصٍ ما؟ أخبره فقط أن خياله

ضحل، وبرأيي، الخيالُ الخصبُ عنصرٌ مهمٌّ من عناصر الذكاء، فلا يوجد
عبقريٌّ ليس لديه خيالٌ هائلٌ وواسعٌ.

راحة نفسية

سأل أحمد صديقه سومر: كيف يمكنك يا سومر أن تكون بهذه الراحة النفسية دائماً؟

سومر وبكل ثقة: هل تحسدني؟

أحمد: من أين جاءتك هذه الفكرة؟ بالتأكيد لا!

سومر: إذا لماذا تسألني سؤالاً كهذا؟

أحمد: لأنني أراك مرتاحاً، لست أقصد مرتاحاً بشكل كامل، فالحياة متعبة بالتأكيد، لكنك نفسياً لا شيء يزعجك.

سومر: لا شيء يزعجني نفسياً لأنني قوي.

أحمد: حسناً لنفترض أنك كذلك، ما سر قوتك إذن؟

سومر: لأنني رجلٌ والرجال دائماً أقوياء.

أحمد: كيف تفكر حتى تبقى بهذه القوة؟

سومر: لا أفكر.

أحمد: اشرح لي أكثر عن الموضوع.

سومر: كل ما في الأمر أنني كنت أمشي كما يمشي كل من حولي في

المجتمع، لم أشك للحظة واحدة بأي شيء في نفسي أو بالأفكار المزروعة

في دماغي، إن كانت خاطئة أو صحيحة، لقد آمنْتُ وصدقْتُها فوراً من

دون تفكيرٍ وتمسكتُ بها، و تراني أدافع عنها حتى الموت، لم أتقبل

الاختلاف يوماً، عندما أرى أشخاصاً مختلفين عن غيرهم، كنتُ أنظر

نظرةً تقلُّ من شأنهم، وأحياناً كان ذلك يدعوني للسخرية منهم، فلدي مهارة

قويةً بانتقاد الناس، ولم أحاول أن أنتقد نفسي مرةً واحدة، إن أفكاري هي

الصحيحة فقط وكل أفكار الآخرين غيبية، وإني على ثقة تامةً بأرائي فقط،

لم أحاول أن أفهم الناس وأبحث في أعماقهم أو أشعر بما يشعرون، بل

كنتُ بسرعة الضوء أطلق الأحكام عليهم، لا أتعب دماغي في التفكير

بالمستقبل أو تحقيق أهدافٍ خاصة بي، فكل ما أردته دوماً كان أشياءً سهلةً

يمكنني الوصول لها من دون تعب، لم أبحث عن الحقيقة ولا حتى مرةً في

حياتي، بل كان دائماً يشدني ما هو ملقُوك وكاذب، كل هذا جعلني بعيداً كل

البعدِ عن الصِّراعاتِ التي قد تحدثُ لأيِّ إنسانٍ.
أحمد: على ما أظنُّ أنتَ شخصٌ غيبيٌّ لا أكثرَ.

سباق

استيقظتُ في الصِّباح وتناولتُ إفطاري، يجبُ بعدها أن أذهبَ الى وظيفتي، وقبلَ ذلكَ عليَّ أن أمرَّ على جاري و صديقي في الحيِّ، حيثُ وددتُ عندها أن ألقىَ عليه السَّلَامَ وأردُّ له المبلَغَ المالىَّ الذي أعطاني إِيَّاهُ. قرعتُ بابَ منزله منتظرًا أن يساعِدني أحدٌ ويفتَحَ البابَ حتَّى أتخلَّصَ من مهمَّتي الصَّروريَّة.

بعدَ انتظارٍ لا يقلُّ عن خمسِ دقائق، فتحتُ زوجتُه البابَ لي، فشعرتُ وكأني قد أيقظتُها، إذ كانتَ عيونُها مننْفخةً وشعرُها غيرَ مرتَّب.

أنا: صباحُ الخيرِ يا مدام.

هي منزعةٌ: أهلاً وسهلاً، ماذا تريدُ في هذا الصِّباحِ الباكرِ يا جارنا؟
أنا: أسفٌ على إزعاجِك، هل زوجِكُ المحترمُ في الدَّاخلِ؟ كنتَ أنوي أن أردُّ له المبلَغَ الذي اقترضتُه منه.

هي ببرودٍ شديدٍ: حسناً لا مشكلةً، أعطني إِيَّاهُ وأنا أسلمُهُ له.

قبلَ أن أسلمَها المَالَ، قاطعنا قُدومُ زوجها غاضبًا، كأنه كان ينوي قتلَها وتدميرَها وتناولَ لحمها إن استطاعُ، بدأ بالصِّراخِ على زوجتِه وهو يقولُ:
أنتِ خائنةٌ أنتِ سيئةٌ ومريضةٌ، لديَّ كلُّ الإثباتِ التي تدلُّ على خيانتِك.

هي متوترةٌ: أنتِ الخائنةُ والكاذبةُ، أنا لم أحنكُ، هل تريدُ أن ترميَ ما في داخلِك على الآخرين؟

رفعَ هاتفه النِّقالَ وفتحَهُ ثم راحَ يريها الصُّورَ التي تدلُّ على خيانتِها: ما رأيكِ بهذه الصُّورة، وهذه وهذه؟

استرقيتُ النَّظَرَ على تلكِ الصُّورِ قليلاً، بالفعلَ كانتَ صورًا فاضحةً ومخجلةً.

هي غضبتُ ونظرتُ في وجهه: أنتَ من خننتني في البداية، وهذا لا شيءَ سوى ردِّ فعلٍ معاكسٍ على ما فعلتُه بي، هذه الإساءةُ التي فعلتها بي عادتُ إليكَ، أنتَ السيِّءُ ولستُ أنا.

هو: ألا تعلمين أنكِ امرأة! إذن أنتِ السيئة والخائنة ولست أنا.
نظرتُ فيهما وفكرتُ في داخلي: كلُّ منهما يتهم الآخر بأنه الأكثرُ بشاعةً،
لكنني مدركٌ تمامًا أنّ في داخلِ كلِّ من الزوج والزوجة صوتًا يقول: ليتني
أكونُ الفائزَ والأكثرَ سوءًا!

عدو

أنا تلك الفتاة الطيبة التي خاضت قصة حب مؤذية مع مراهنج نرجسي لا يحب إلا نفسه، أضناني التعب وكثرة التفكير، فمنذ ذلك الوقت الذي انفصلنا فيه وأنا أشعر بأن أي حركة يقوم بها هدفها إزعاجي فقط، كل تحركاته غايتها إيذاءي وتدميرني وتحطيمي أكثر ما يمكن.

ليس لدي طريقة للتخلص من كل ذلك، سوى اللجوء لرب عائلتي كي أخبره بقصتي تلك، فهو لا يعلم عنها شيئاً. أنا واقفة أمامه في غرفة المعيشة، كنت خائفة من ردّة فعله التي ستودي بي: أبي أريد أن أخبرك بعلاقتي العاطفية الأخيرة. أبي وهو يضحك: أخبرتني أمك لا تخافي، ماذا يحدث لك الآن؟ حسب معلوماتي أنكم انفصلتم.

أنا وقد صدمت من معرفته، فهذا أشعرنني أن أمي خاننتني، وفي الوقت نفسه ارتحت، فقد اختصرت أمي الوقت عليّ: أشعر يا أبي أن كل حركة يقوم بها في حياته يريد منها إزعاجي، وأنا منشغلة به طوال الوقت. أبي: إذا أردت يا ابنتي أستطيع إخفاءه تحت الأرض، لكن قبل أي تصرف يمكن أن أفعله، أريد إخبارك أن الناس لا تهتم إلا لمصلحتها الشخصية بشكل عام، وإذا كانت غاية أي سلوك يقوم به هي استهدافك، فهذا دليل واضح أنك أنت الرابحة، أما إذا كنت أنت من تشعرين بذلك فقط، فهذا يعني أنه هزمك.

سكت قليلاً وشرب من كأس الماء الموضوع على الطاولة، ثم سألتني: هل تريد أن تكوني مهزومة؟

رسالة إلى حبيبتي

يا وردةً في أشواكِ هذا العالم، يا حلمًا في خيالٍ عاجز، يا ضحكةً بعدَ بكاءٍ طويل، يا عناقًا بعدَ ليالٍ كثيرةٍ من الوحدة، يا حرّيةً سجين، يا نجاحٍ مجتهد، يا راحةً متعب، يا وصولًا بعدَ طولٍ انتظار، يا هدوءًا بعدَ ضجيجٍ أفكار، يا ذكرى جميلةً في دماغٍ عجوز، يا علاجًا من مرضٍ مزمن، يا إنقاذًا من غرقٍ محتّم، يا انتصارٍ محارب.

يا فرحي وحزني، يا أكبرَ انتصاراتي وأشدَّ هزائمي، يا أملِي ويأسي، يا أعظمَ أسرارِي وأجملَ فضائحي، يا وحدتي وجيشي، يا أملِي ويأسي، يا كلَّ شيء.

منذ تعرّفتُ عليكِ كنتُ أنوي أن تكونَ هذه أجملَ علاقةٍ في حياتي، وحقيقةً هذا ما حصل، جرّبتُ معكِ أن أعطي دونَ مقابل، أن أحبّ من كلِّ قلبي، ألا أفكرَ بالتفاصيلِ وأبتعدَ عن الحساباتِ وأتجاهلَ كلَّ ما يعوقُ طريقي، فتنفكيرٌ أقلُّ يعني سعادةً أكثر، هي عبارةٌ عن علاقةٍ عكسيةٍ دائمًا، بالفعل كنتُ سعيدًا أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى، فكلُّ شيءٍ كان رائعًا، وماكنتُ أريدُهُ قد حصل.

لكنّ على الرّغم من كلِّ ذلك، أريدُ في هذه الرّسالةِ إخباركِ خبرًا قد يبدو قبيحًا، لكنّه الحقيقةُ التي أوّدها.

أنا سوف أتركك، فلا أرغبُ أن تنتهيَ علاقتنا بزواجٍ مُملٍ أو بموتٍ محزن، أو بمشكلةٍ صغيرةٍ تتركُ بعدها أحقادًا طويلةً، أريدُ أن تعيشي في ذاكرتي إلى الأبدِ وتبقي جميلةً، وعلى الرّغم من كلِّ ذلك، أعرفُ أنّي سأشتاقُ لكِ وربما أُغيّرُ رأيي!

وسواس

بدأت القصة عندما كان سالم يتصفح أحد مواقع التواصل، عندها رأى مقطعاً مصوراً لعملية قتلٍ شنيعة، كانت الجريمة بشعة بكل معنى الكلمة، وكان القاتل يرتكبها بنية التسلية فقط، فهو بشكلٍ طبيعي يستمتع بأذية الناس، والغريب أن التعليقات كانت تسخر من المظلوم وتشجع الظالم على ما يفعله، عندها خطر في بال سالم الكثير من الأسئلة، منها: ما الشيء الذي يميزه عن هذا القاتل؟ ربما هو يملك الرغبة ولكنه لا يدري! ربما هو يعرف أن هذا شيئاً خاطئاً، لأن المجتمع علمه ذلك والقانون حذره، وإذا أخطأ سيعاقب على فعلته فقط لا أكثر، عندما رأى هذا الفيديو أدمن على هذه المشاهدات، وكان في كل مرة يشاهد فيديو لجريمة ما يشعر بشعورٍ غريب، يشعر بالخوف من بشاعة المشهد، وفي الوقت ذاته، يشعر بالحزن من نفسه لأنه يرى هذه المشاهد؟ كان كلما ينتهي من مشاهدة هذه الأمور، ينتابُه حزنٌ عميقٌ في داخله، يخاف أن تكون هذه هي رغبته وحقيقته، إن كان كذلك فهو ليس بشخصٍ طبيعي، وليس عليه الحياة وسط البشر، فوجوده خطرٌ ومؤذي، ما الذي يدفعه لمشاهدة شيءٍ مثيرٍ للاشمزاز مثل هذا! كان هذا هو تساؤله العميق، هل هو كذلك؟ هل هو مجرم؟ أم أنه مجرد إدمانٍ غبي! فقد دخل في هذه الحلقة المفرغة، ويبدو أن لا سبيل له للخروج منها أبداً، لكن ما كان متأكداً منه أنه عندما يرى الناس لم يكن يشعر بنية قتلهم أو أذيتهم، بل بالعكس كان لطيفاً مع البشر، يشعر بهم ويدافع عنهم، كما أنه كان دوماً مع تحقيق العدل في هذه الحياة، ومناصرة حقوق المظلومين والمضطهدين، لكن تنتابُه الرغبة في مشاهدة هذه الأشياء، عندما يكون وحيداً وبعيداً عن الجميع، ربما الموضوع بالنسبة لغيره أمرٌ تافهٌ وليس بحاجة للتفكير، لكنه يقلقه، وفضوله تجاه معرفة أعماق نفسه وأعماق النفس البشرية هو السبب.

تساءل هل هو مثل الجميع؟ هل كلهم لديهم هذه الرغبة بداخلهم لكنهم لا يدركون! أم أنه مدمنٌ على مشاهد مشوهة للعقل! وبما أنه ليس كذلك مع الناس، ربما هو مجرد خيالٍ لا حدود له ولا يمت للواقع بصلة! الجواب واضحٌ وجلي، هو مجرد مدمنٍ لا أكثر، وهذه الرغبة ربما موجودة، وإذا

كانت كذلك، فقد ضحمتها في خياله كي يسلي نفسه لا أكثر، وها هو الآن يتخلص من هذا الإدمان التافه، ويعتقد أن هذه الأشياء يجب إزالتها من الشبكة العشوائية، فهي كما أدته ستؤدي غيره، وقد تصبح مشاهدتها شيئاً طبيعياً، لكن سؤالي، هل هذه الرغبة موجودة عند الجميع؟ الغريب الذي لاحظته أننا إذا نظرنا إلى التاريخ على مر العصور، سنرى قصصاً كثيرة عن الإجرام باختلاف النية والسبب، لكنه موجود على مر العصور بصور مختلفة، وغالباً ما يكون الظالم يدعي إنقاذ البشرية من الأشرار، ويشعر دائماً بتفوقه وغروره البشع الذي يدفعه لفعل شنيع، وهو مبادلة الشر إذا كان موجوداً بالأصل بجريمة أكبر، وهي سلب حياة شخص ما أو تعذيبه حتى الموت، ربما تلك الرغبة موجودة عند البشر بدرجات مختلفة، والأنانية هي مصدرها الأكبر، فالأنانية هي الشيء الثابت الوحيد بداخل كل بشري، حيث يمكن لها أن تجعله يظن أن الحياة من حقه فقط، فمن يناضل لتحقيق العدالة هو من يخاف على نفسه من الظلم، ولا مبرر يمكن أن يوضع لمن لا يريد العدالة ويريد أن يظلم الآخرين.

سعادة

في هذا اليوم أشعرُ بتعاسةٍ لا تُحتمل، لقد وصلتُ للمرحلة التي أريدها، لكن يبدو أن هذا لا يكفي، لديّ الكثيرُ من الأموال، وأملكُ نجاحاتٍ وإنجازاتٍ لا تعدُّ ولا تحصى، كما أنني جميلٌ بكلِّ ما للكلمة من معنى وحسب كلِّ المقاييس والتصنيفات العالمية، فجمالي جعل مني شخصاً مشهوراً، كلُّ شيءٍ في هذه الحياة بات داخلَ جعبتي وفي جيبتي، حياتي رائعةٌ وفوقَ المستوى المرتفع بمراحل، حيثُ لا يوجدُ عملٌ متعبٌ أو عائقٌ، حتّى أنني أمتلكُ الوقت، وعلاقتي الاجتماعيةُ صحيّةٌ ومميّزةٌ، كلُّ التقاليد التي تمدّني بالمتعة كانت متوفرةً، ويمكنني الحصولُ على ما أريدُ بسهولةٍ مطلقاً، لكن على الرغم من كلِّ ذلك أنا غيرُ سعيدٍ، فقد اكتشفتُ بأنّ السعادة التي لاحقتها طوالَ حياتي، كانت وهماً وغيرَ موجودةٍ، وعلماً من المستحيل أن يصبحَ حقيقةً، هي سرابٌ وخيالٌ وأمنيةٌ بحالةٍ وحياةٍ أفضل، هدفٌ أحاول الوصولَ إليه لكنّه يهربُ ويتسللُ من بين يدي، بعدما ظننتُ بأنّي وصلتهُ، اعتقدتُ بأنّ السعادةَ بالمال، وها أنا قد امتلكتُ المالَ ولم أصبحَ سعيداً، اعتقدتُ بأنّها علاقاتٌ اجتماعيةٌ جميلةٌ، وعندما وصلتها بقيتُ حزيباً، قلتُ في نفسي هي إنجازاتٌ وأنا سأكونُ من أكثرَ الرجالِ الناجحين في العالم، بينما "الشهرة، القوة، السلطنة" لم تكن السعادةُ موجودةً في أيِّ واحدةٍ منها. إذا نظرنا للمالِ لا نستطيعُ أن ننكرَ فضلَهُ في صنع الاستقرار، لقد أصبحَ جزءاً مهماً لتحقيقِ حياةٍ مرضيةٍ، وباقي الأمور هي أشياءٌ جيّدةٌ ومفيدةٌ في تحسينِ حالتك، لكنّها ليستِ التعريفُ الأساسيُّ للسعادة، وليستِ الفهمُ الحقيقيُّ لمعناها، فهي ليستِ مراداً يمكنكُ عندما تحصلُ عليه أن تتشبّثَ به جيّداً حتّى لا يفارقَكَ نهائياً، هي حالةٌ تمرُّ فيها أنت لا أكثر، فالسعادةُ المطلقةُ غيرُ موجودة.

لقد قالوا أنّ السعادةَ هي الرضا عن الحياة والقناعة بما لديك، وأنا الآن أكثرُ رضىً عن نفسي وعن حياتي، ومع ذلك فالسرورُ والبهجةُ غيرُ موجودين في داخلي، قالوا أيضاً أنّ السعادةَ قرارٌ، حسناً، إن قرّرتُ أن أكونَ سعيداً اليوم، هل ستتغيّرُ نظرتي لكلِّ شيءٍ وتصبحُ ملونةً وزاهيةً؟ هل سترقصُ عيناك فرحاً ويتحقّقُ ذلك في لمح البصر؟ لا أعتقدُ ذلك!

عندما راقبتُ حياتي وتذكرتُ اللحظات التي كنتُ سعيدًا فيها، اكتشفتُ أنَّ السَّعادةَ تكمنُ في البحثِ عن السَّعادةِ، أيَّ عندما يكونُ هدفُك أن تسيرَ على سطح القمر، فإنَّكَ ستصبحُ سعيدًا في اللحظة التي تطيرُ فيها متَّجهاً إلى القمر، يمكنُ لك أن تبتهجَ عندما تبحثُ أو تسعى إلى ما تريد، إن كان مألًا أو علاقاتٍ أو إنجازاتٍ أو أيَّ شيءٍ آخرَ تريدهُ، في الوقتِ الذي تشعرُ به أنكَ على الطَّريقِ لوجهتكَ، في الرِّحلةِ إلى الوهم المُسمَّى "السَّعادةِ المستدامة".

تستحوذُ النَّعاسةُ قلبَكَ عندما لا يبقى شيءٌ تريدهُ أو تسيرُ من أجله، في الوقتِ الذي تسيرُ فيه إلى مكانٍ لم يكنْ مقصدًا لك من الأساس، في الطَّريقِ الذي لا يشبهُكَ، في اللحظة التي تتوقفُ فيها عن السَّعيِ للسَّعادةِ.

شاب مضحك

صديقي نبيل شاب في مقتبل العمر، كان يحب الحياة مثل أي شاب، وشخصيته الانبساطية الاجتماعية كانت تدفعه دوماً لمعاشرة الناس ومقابلتهم، وتبادل كل أشكال المرح والسمر معهم، يملك الكثير من الأصدقاء، ويحلم بأن يكون سعيداً مثل الجميع، يحمل في باطنه الكثير من الأمل والحماسة بأن يمضي أجمل الأوقات مع الآخرين، بالإضافة لذلك كان يحاول مراراً وتكراراً رؤية الجمال والخير في من حوله، لكن حساسيته المفرطة هي من منعه عن ذلك، إذ كانت تجعل من أي حدث بسيط أن يقدر على تكبير مزاجه لأيام، لدرجة أن كلمة واحدة كانت تستطيع أن تقتله وتزرع في دماغه الحزن واليأس، كان يرغم نفسه على إخفاء وكتمان تلك الصفة المتجذرة في كيانه، وهذا ما كان يزيد الطين بلّة، فكل تلك المواقف كان يحملها على ظهره، ومع مرور الوقت راحت تتراكم أكثر فأكثر، حتى بدأت تكسر ظهره وتشل حركته و تتعبه، لدرجة لم يستطع نسيانها أو حتى تخطيها، وكلما كان يكثر من تجاهلها، كانت تنتشر وتتضخم أكثر من قبل، وكأنه في حرب مع ذاته، إن انتصر على حقيقته وطبيعته وتزيّن بنسخة أخرى، خسر نفسه، وإن انتصرت هي وهذا ما يحدث دوماً، خسر رغبته في أن يعيش كما يريد، ذلك الصراع لا فوز فيه، هو مهزوم ومغلوب دائماً، صراع بين الرغبة والحقيقة، أو يمكن وصفه بسجن لا سبيل للخروج منه، قفص يحجب عن ناظريك الحياة، بأنه مفتوح كلما تشجعت للهروب منه، أعادك مجبراً إليه، وعاقبك أسوء عقاب.

أكثر ما كان يفتله، هو تلك السخرية التي كان يلقاها من كل شخص يتعرف عليه، حتى بدأ يظن أنه شخص مضحك بكل صفاته، من شكل وجهه وطريقة سيره إلى صوته، لم يستطع أن يضع حدوداً للناس، ولا أن يجعلها تحترمه، بل على العكس، فله الاحترام هي التي كان يلقاها دائماً، مع أنه محترم ويهتم بالآخرين ويخاف أن يتعدى حدوده أو يزعج غيره، دفعه كل ذلك لمحاولة الرد على كل إساءة، لكن لا فائدة من ذلك، حتى اعتقد في النهاية، أنه شخص لا قيمة له ولا أحد يهتم لمشاعره، وأن الجميع يريدون أن يدوسوا على قلبه، طاف الغضب في صدره وسيطر عليه الغيظ، فوصل

به الأمر إلى الحقد الذي عذبته كثيراً.
 وصل لمرحلة كرة فيها الجميع، أما أكثر شخص كرهه فكان هو نفسه، لأن
 المشكلة لو لم تكن موجودة فيه؟ ما حصل معه كل ذلك، لو لم يكن مدعاة
 للسخرية وغريباً للأطوار، لما عومل بهذه الطريقة البشعة، لو لم يكن
 مفرطاً في الحساسية، لما رافقته هذه المشاعر السلبية، لو لم يكن طيب
 القلب لطيفاً، لكان سيفدّم له الاحترام، مع كل هذه المشاعر قرّر أن يتحوّل
 لشخص شرس و حاقِد يعاملُ الناسَ بطريقةٍ مزرية، لكن مع ذلك لم تحصّد
 هذه الطريقة أيّ نجاح، بل استمرت السخرية منه ومن تصرفاته، يبدو أنّ
 طبيعة الإنسان نفور دائماً مهما لبس من أفعنة، وحقيقته ستنتصر عليه لا
 محالة.

أخبرني عدة مرّات بأنّ أفكاراً مستمرة كانت تراوده لقتل كل من أساء إليه،
 ولكن هل يستطيع أن يقتل الجميع! كان إذا سمع ضحكة أي شخص في
 الشارع، يشعر بنوع من التوتر والقلق الذي يذكره بكل إساءة وجهت له،
 حربُه الآن ليست مع شخص أو شخصين محددين، بل مع الجميع، لقد فقد
 الأمل بإيجاد أشخاص محترمين، إذ في رأيه كان الجميع أشراراً ويشبهون
 بعضهم البعض ومصنوعين من الطينة نفسها، أتعبه السخط والحقد الذي
 يرافقه في كل لقاء وموقف، فبدأت مشاعره تزداد سوءاً، خاصة أنّ قرار
 قتل الجميع لن ينجح، ولا يمكن له أن يقتل سوى شخص واحد، أي يستطيع
 قتل نفسه فقط، ليتخلص من حياته ومعاناته وينهي كل شيء من دون أن
 يشعر، بعدها ستموت حساسيته الزائدة وحقده، وسيموت غضبه الذي
 يخنقه، بقتل نفسه سيموت هو ويختفي معه كل شيء، ستنتهي تلك القصة
 التي لطالما كانت بشعة وصعبة، والأهم من كل هذا ستنتهي تلك السخرية
 وتتوقف، وستأخذ الأمور منحى آخر، سيتحوّل لذكرى لا بل سينسى بعد
 أسبوعين لا أكثر.

ظلت فكرة الانتحار تذهب وتأتي في دماغ نبيل حتى اتخذ القرار بإنهاء
 حياته، ظناً منه بأن كل من آذاه سيقتله الندم متذكراً إساءته له والسبب فيما
 وصل إليه نبيل، سيكون على فراقه وسيتمنون لو أنّ الزمن يعود ولا
 يفعلوا ما فعلوه، وقد يحاولون أن يصبوا له تمثالاً كي يكفروا عن ذنبهم

تجاهه، ستبقى ذاكرتهم تذللهم وتهيئهم وتنخر في عظامهم، وهذا أفضل انتقام يمكن أن يفعله الآن، وأقوى رد قد يحصل، فهو تعذيب نفسي لكل مسيء.

لقد لمّح لي بنيتي تلك، وحاولت مساعدته بالكثير من الطرق. فجاءه وفي يوم كان غاضباً فيه، وقف على سطح بيته في الطابق الرابع ورمى بنفسه، فوقع على الأرض ونزفت بشدة حتى مات على الفور، لحظة انفعال و غضب هي من أودت بحياته، فانتقل هذا الغضب والحزن إلى أهله بموته، وكانت فاجعة كبيرة بالنسبة لهم ونهاية حلم كان ينمو لديهم منذ ولادته، ولكن ماذا عن كل من أساء له، ماذا فعلوا؟ لقد تضايقوا عليه ونشروا صورته وداعاً له وساعدوا أهله في عزاءه، لكنهم بعد كل ذلك في غرفة العزاء، على الرغم من أن تابوته الذي يحمل جثمانه موجود في منتصفها.

قال أحد أصدقائه الذي كان يقف قريباً مني: أعتقد أنه قتل نفسه لأن أمه لم تحضر له وجبة الشاورما التي يفضلها. فضحك كل من حوله.

قلت في نفسي عندها: ليتك لم تقتل نفسك، حتى موثك تحوّل الى نكتة تافهة، على ما أظن يمكننا كبشر صناعة نكتة من أي أمر!

شوق وحنين

كانت ذاكرتي تزعجني باستمرار، كنت أشعرُ بالاشتياقِ لفتاةٍ كانتِ السببُ
بانهيارِي وتعديبي لفترةٍ لا يستهانُ بها، شخصيةٌ سامّةٌ من المفترض أن
تحوّلَ مشاعري تجاهها لكرهٍ وحقْدٍ، وليس إلى مشاعرِ شوقٍ وحنينٍ،
تمنيتُ في كلِّ يومٍ أن أنساها وأبدأَ طريقي من البدايةِ وكأنّها ولادةٌ جديدةٌ
بالنسبة لي، ومن غرابةِ الموضوع، كنتُ كلما جلستُ وحدي أتذكّرُ لحظّاتنا
الجميلةِ سويّةً، أمّا بالنسبةِ لتلك اللحظاتِ البشعةِ، كنتُ أنساها ولا يعطيها
دماغي أيّ اهتمامٍ، مع أنّ أغلبَ لحظّاتنا كانت تعيسةً ومريرةً، فبعد كلِّ
موجةٍ تذكّرُ كنتُ لا أتمالكُ نفسي، فأذهبُ لأتحدّثَ معها كي أعيدَ وأحييَ
هذه الأيامَ الرائعةَ والذهبيةَ، متأملاً جعلها أفضلَ ممّا هي عليه و أجملَ،
وكأنّني أنا المسؤولُ عن عدمِ اكتمالِ بهجتها، كما لو أنّها ليست الفتاةُ
صاحبةُ الشخصيةِ المريضةِ المؤذيةِ، ربّما كنتُ أشتاقُ لها، لا لجمالها بلُ
لأنّها كانت ناقصةً ولم تكن كاملةً على الرّغم من روعتها.

هل أنا غيبي كي أفعلَ بنفسِي هكذا وأعودُ لمن أذاني ولم يهتمَ لقلبي
ومشاعري؟ لماذا تمكّنتُ هي من نسياني؟ أمّا أنا ما زالَ الزّمانُ واقفاً
عندي ولم يتحرّك! لماذا أنا ضعيفٌ لهذه الدرّجة؟ لماذا أعيشُ متعباً من
صراعٍ يجتاحُ جسدي، صراعٍ بين عقلي وقلبي؟

لاحقاً ومع مرورِ الوقتِ حاولتُ استبدالها وتعرّفتُ على فتاةٍ جميلةٍ أخرى،
كي أصنعَ ذكرياتٍ جديدةً وأنسى الماضي، لا أنكرُ أنّي تحسّنتُ كثيراً وزالَ
الهمُّ الذي رافقني بسببِ صراعي الوجوديِّ النَّفسيِّ بين عقلي وقلبي، كنتُ
أتذكّرُها أحياناً ولا أعرفُ ما الذي يحدثُ، هل هو شوقٌ وحنينٌ أم مجردُ
تذكّرٍ عابرٍ؟ إذا كان تذكّراً عابراً، لماذا كنتُ أتذكّرُ لحظّاتنا الجميلةِ التي
لطالما عذبنتني لأنّها مع إنسانٍ سيءٍ؟ ولا أتذكّرُ أسوءَ الأيامِ التي مررتُ
بها بسببها؟

بعد بحثٍ طويلٍ في أعماقي وفي ما حولي من معطيات، توصلتُ في
النّهايةِ لحقيقةٍ تنصُّ على أنّه: نعم، ربّما يكونُ هذا الأمرُ حنيناً لتلك
اللحظّاتِ أو المشاعرِ المرهفةِ التي شعرتُ بها في تلك اللّحظّاتِ، لكنّه ليس

اشتياقًا لتلك الإنسانية، فهناك فرقٌ كبيرٌ بينهما حتى في اللّغة، لأنّ الاشتياقَ هو الشّعورُ الذي تشعُرُ بهِ عند تذكُّركَ حدثًا ما، وفي الوقتِ نفسه هو رغبتُكَ في أن تكونَ مستقبلًا مع ذلك الكائنِ الذي جعلكَ تشعُرُ بهذا الشّعورِ، و تتمنى أن يكونَ بجانبِكَ وتصنعَ معه أوقاتًا حلوةً، عندما نتذكَّرُ شخصًا ما ونشعُرُ بشعورِ الحنينِ، لا يعني ذلك أننا نريدُ أن نكونَ معه مستقبلًا، ولا يعني أننا نشتاقُ له أبدًا. لقد وجدتُ الإجابةَ في قاموسِ اللّغة.

حل

لي سنواتٍ طويلةً أجهّز نفسي كي أعيشَ الحياةَ، قرأتُ ملايينَ الكتبِ، تلكَ الكتبُ التي تعطي القارئَ حلولاً لكلِّ المشاكلِ التي من الممكنِ أنْ تقفَ في طريقه، الآنَ أنا قويٌّ وذكيٌّ، ولا يمكنُ لعقبةٍ أنْ تمنعني من الوصولِ إلى وجهتي، لديّ القوّة القتاليّة والقوّة التكتيكيّة والمهارةُ في استخدامِ دماغي، أنا جاهزٌ لأيِّ معركة، الآنَ يمكنني الخروجُ من منزلي الذي صنعَ مني بطلاً كان يتدرّبُ لسنواتٍ طويلةً، كي يجاري الحياةَ ويتصارعَ معها.

في اللحظة التي خرجتُ فيها من بابِ منزلي وأنا أغلقُ البابَ، أتنتني لكمةٌ لم أرَ فيها سوى يدٍ اصطدمتُ في وجهي، فأصبحَ بعدها كلُّ شيءٍ أسوداً، استيقظتُ بعد مدّةٍ في غرفةٍ بإحدى المشافئِ وحولي أبي والفتاة التي كنتُ معجباً بها، عندما رأيتها أصابتنني الصدمةُ، ما الذي أتى بها إلى هنا؟

لأكتشفَ لاحقاً أنّها هي من أسعفتني، وحسبَ كلامها أنّ هناك شخصاً ضربني وفرّ هارباً، لكنّها لم تستطع رؤية وجهه، وعندما ذكرتُ كلمةً وجهه، طلبتُ من أبي أنْ يعطيني مرآةً لأرى وجهي، لقد كان أنفي مشوّهاً بطريقةٍ مضحكةً، ففي منتصفه وادٍ ستسقطُ به أيُّ حشرةٍ تحاولُ المرورَ على أنفي، ولا سبيلَ لها لتخرجَ من هذا الوادي بسببِ عمقه الشديد.

أخبرني الطّبيبُ أنّي بحاجةٌ لعمليةٍ تجميلٍ، ومن المستحيلِ أنْ يعودَ أنفي كما كان، لكنّه سيرمّمُ ما تبقى منه كي أتنفّسَ بطريقةٍ سليمةً، لأنّ تنفّسي الآنَ باتَ يرافقه صوتٌ مزمارٍ مزعجٍ لكلِّ من يريدُ أنْ يقفَ بجانبني، وإذا قدّمتُ امتحاناً في قاعةٍ تحوي طلاباً آخرين، من المؤكّد أنّهُ سيتمُّ طردني.

بعدما رأتنني تلكَ الفتاةَ بشكلي البشع، بعدَ أنْ ضربني أحدُ المارّة وهرب، من المستحيلِ أنْ تصبحَ حبيبتي بعد ما حدث، أدركتُ حينها أنّي في مأزقٍ كبير.

عندما عدتُ إلى منزلي بحثتُ في كلِّ الكتبِ الطَّبِيةِ وغيرِ الطَّبِيةِ، العالميةِ
والوطنيةِ، لكنِّي لم أجدُ حلاً لهذهِ الورطةِ، تنبأ، يبدو عليَّ أن أخترعَ الحلَّ
أنا!

طبيب

في الصف الثالث الثانوي، كنا أربعين طالبًا محبوسين في صفٍ كبير، كان الصفُّ أشبه بالسجن، فجدرائه عتيقةٌ ونوافذه محطمةٌ، لا تحمينا من برد الشتاء ولا من حر الصيف، لقد مرَّ على مدرستنا تلك الكثير من الأحداث، من الحرب إلى الزلازل، ومع كلِّ ذلك كان التعليم مستمرًّا فيها، على الرغم من أن هذا المكان كان عتيقًا ومهترئًا، إلا أنه علمَ أشخاصًا أصبحوا فيما بعد، أطباءً ومهندسين وعلماء وفلاسفة.

نعم كنا أربعين طالبًا، ثلاثة منهم كانوا الأوائل على الصفِّ، هؤلاء الثلاثة الذي يمكن تسميتهم بأنهم غير مستسلمين، يحاولون رغم كلِّ شيء أن يكون لهم صوت، أما الباقون الذي كنتُ أنا منهم، فكانوا الخائفين أو المستسلمين، هم مجتهدون قليلًا لكنهم كانوا مترددين، ربّما كانوا يخفون صوتهم مثلي أنا، أو يمكن أن يكونوا قد استسلموا بشكلٍ نهائي.

في يومٍ ما أتى أستاذٌ جديدٌ إلى صفِّنا، كان مختلفًا عن البقية، فقد طلب منا أن ندرس بطريقة لطيفة لم نكن قد اعتدنا عليها، أصبح يأتينا باختباراتٍ نعبر فيها عن رأينا بمعادلة رياضية أو علاقة حسابية ما، كان يجب على كلِّ طالب أن يعطي رأيه الخاص على الورق، ويستنتج من دراسته ما يريد، وبالتأكيد يجب ألا تتشابه أجوبتنا أبدًا، ليس هناك أي علامة أو رقم يُعطى لأحد، فنحن لسنا أرقامًا.

في حصته كنتُ أشعر أنني مسموغة، هو لم يعاقبني على تقصيري في يومٍ ما، بل عالج عدم تعلّمي.

دماغ

ها أنا أصرخُ يومياً على طفلي الذي أحرقَ يدهُ بالمدفئة، ثم حاولَ التدخين،
ثم شربَ سائلَ الجلي ثم.....
لقد أتعبني هذا الطفل، بلُ وجعلني أشعرُ بالندم على الساعة التي أردتُ فيها
أن أصبحَ أمًّا، في كلِّ مرّةٍ أخبرُهُ ألا يفعلَ ذلكَ فيذهبُ ويفعلها! كأنه يريدُ
التمردَ عليّ أو تدميرَ نفسه.

بينما كنتُ أفكّرُ بهذا الأمر، أتى إلى غرفةِ المعيشة التي أجلسُ فيها،
وحاولَ رميَ نفسه من النافذة!

أنا: مهلاً، ماذا تفعل؟

هو: أريدُ أن أقفزَ من النافذة.

أنا بكلِّ خوف: ألم أخبرك ألا تفعلها؟

هو نزلَ من النافذة، ثم وقفَ ونظرَ إليّ قائلاً: في كلِّ مرّةٍ تخبريني ألا أفعلَ
هذا، ولا تقولي لي لماذا! ألا تحترمين أن لي دماغاً يفكر؟

عقدة

استيقظَ مازنٌ في الصّباحِ، بعد أن أيقظتهُ أمُّه كالعادة، حضّرتُ لهُ وجبةَ الفطورِ ورتبتُ لهُ حقيبتَهُ ووضعْتُ لهُ دفاترَهُ وكتبتهُ، حتّى أنها ألبستهُ ثيابَ المدرسةِ وكأنّه طفلٌ في الصّفِ الأوّل، لكنّ في الحقيقة، هو طالبٌ في الصّفِ الثّالثِ الثّانويِّ في بدايةِ شبابه، حيثُ تبدو عليه معالمُ الرّجولة، يملكُ صوتًا خشنًا ولحيةً شقراء، لكنّه من الدّاخلِ طفلٌ صغيرٌ اعتماديّ لا يستطيعُ حتّى تقشيرِ بصله.

في الوقتِ نفسِه، استيقظَ مجدٌ صديقُ مازنٍ من النّومِ وحدَه، على صراخِ أبيه وأمّه، فحصلَ على صفةٍ صباحيةٍ من أبيه، لأنّه لا يحبُّ تناولَ حساءِ الحجارةِ كوجبةٍ للفطورِ، فكيفَ يمكنُ أن يصبحَ رجلًا من دون أن يعذّبوه بشكلٍ دائمٍ ويقسوا عليه! هذه الحياةُ صعبةٌ وخشنةٌ، ويجبُ عليه أن يتحمّلها، لقد كان مجدٌ يملكُ بنيةً عضليّةً قويّةً، وندبةً في وجهه تميّزه عن الجميع، ارتسمتُ على جبينه بسببِ ضربةٍ قويّةٍ تلقّاها من أبيه صاحبِ الشّخصيةِ الغاضبة.

أما نورٌ فقد وبّخها أهلها وقارنوها بمازن، وبمدى التزامه واحترامه لأهله، مع أنّهم لم يعرفوا الاهتمامَ الرّائدَ الذي يحظى به، ولم يقارنوا أنفسهم بأهله وبطريقتهم في التّربية، تولّد لديها بسبب ذلكِ كرهٌ لن ينتهي تجاهه، فعزمتُ أن تنتقمَ منه لتغيّرِ نظرةِ أباؤها لها ولمازن أيضًا، طامعةٌ بأنّ تحصلَ على الحبِّ من أمّها وأبيها التي لطالما حلمتْ به.

بدأ وقتُ المدرسة، وها هي الدّروسُ تتوالى تباعًا، كان مجدٌ خلالَ هذا الوقتِ يسألُ الطلابَ باحثًا عن حبوبٍ مخدّرة، فهو لا يستطيعُ أن يعيشَ من دونها، وهذا الشّيءُ جزءٌ من شخصيتهِ التي تعشقُ الخطرَ والنّهورَ، كان يدّعي أنه لا يخافُ من شيءٍ ويبيدُ القوّةَ والصّلابة، حيثُ لا يوجدُ طالبٌ إلا وقامَ مجدٌ بضربه.

التقى مجدٌ بنورٌ وأخبرها بأنّه يعاني من انقطاعِ الحبوبِ المخدّرة، وهو بأمرٍ الحاجةِ إليها.

نورٌ وهي تتكلّمُ بهمسٍ: سأعطيكَ ما تريدُ، ولكنْ بشرطٍ واحدٍ مفادُهُ أَنَّهُ يجبُ عليكِ أَنْ تأخذَ مازنَ معكَ، وتشجّعهُ كي يتناولَ منها.

مازنٌ غيرُ أبيه بما سيحدثُ: مثلما تريدُين، المهمُّ أَن تعطيني هذه الحبوبِ. أخرجتُ نورَ كيسًا من حقيبتها كان يحتوي عشرينَ حبةً، وأعطتهُ إيّاهُ. أخذَ مجدُ الكيسَ وذهبَ في آخرِ الدّوامِ إلى صديقهِ مازنَ، وقالَ لَهُ بطريقةً تبدو وكأنّ الموضوعَ شيءٌ عاديٌّ جدًّا: تعالَ معي إلى المنزلِ لنذهبَ ونتعاطى المخدراتِ.

كان تردّدُ مازنَ يبدو واضحًا وكأنّه يريدُ الرّفصَ، لكنّه لم يقلْ لا بسببِ خوفِهِ من خسارةِ صديقهِ مجدُ، فاضطرَّ إلى قبولِ الأمرِ. في طريقهِم إلى المنزلِ، كانت نورُ قد أخبرتِ الشرطَةَ بأنّ مازنَ ومجدُ يمتلكانِ الممنوعاتِ، فالقتِ الشرطَةُ القبضَ عليهما في الطّريقِ، وحاولَ مجدُ ممانعتَهُم وضربَهُم، لكنّهم تمكّنوا منه في النّهايةِ. عندما صارا في السّجنِ، تمّ التّحقيقُ معهُما، وعندها اعترفت مجدُ بأنّ نورَ هي من أعطتَهُم الممنوعاتِ، فتوجّهتِ الشرطَةُ إلى منزلِ نورَ وألقوا القبضَ عليها أيضًا.

الأصدقاءُ الثلاثةُ في السّجنِ الآنَ، ولا اعتقدُ أَنهم هم من ارتكبَ الجريمةَ!

غضب

في يومٍ غريبٍ وأنا في الثامنة عشر من عمري، كنتُ وقتها أمشي في أحد الطرق وأستمعُ إلى الأغاني عبر سماعاتٍ وضعتها مسبقًا في أذني، لم أكن حينها أهتمُّ للناس المارين من حولي، فقط للموسيقى ومنظر المطر ورائحته التي تملئُ الشوارع، ومن دون قصدٍ اصطدمتُ كنفِي بكتفِ أحد المارة، كان شابًا يبدو أنه من عمري أيضًا، تظهُرُ عليه ملامحُ اللؤم والحقارة، صرخَ في وجهي حتى أتتني سمعتهُ على الرغم من وجود السماعاتِ في أذني، كان يقولُ هل أنتِ أعمى! أم أنكِ تريدُ أن توقعِ نفسكِ في مشاكلٍ أنتِ بغنى عنها؟

رفعتُ السماعاتِ عن أذني وقلتُ له: نعم أريدُ أن أضعَ نفسي في مشكلةٍ! أرني ماذا ستفعلُ إذن؟ في الحقيقة، شعرتُ في تلك اللحظة بغضبٍ كبير، وذلك الغضبُ تولدَ من إحساسي بأنني عوملتُ بشكلٍ غيرِ عادلٍ وغيرِ لائق، وبما أتتني كنتُ صغيرًا في العمر، بدأ الغضبُ يظهرُ على صوتي ووجهي بسرعة.

أردتُ ضربه قبل أن يضربني، فأنا أعلمُ أن في قانون قتال الشوارع، علي أن أبدأ أنا في الضرب حتى أنتصرَ على خصمي، لكنني ترددتُ ولم أتخذ القرارَ حتى ضربني هو على وجهي ولم أعد أرى أمامي، فسقطتُ أرضًا وخسرتُ خسارةً نكراءً في هذه المعركة.

مرت الأيامُ والسنواتُ، وها أنا كبرتُ الآن ولم أنسَ خسارتي تلك، كنتُ أتمنى لو أتتني قاتلةُ هذا الحقيز مرةً أخرى، حتى أوسعهُ ضربًا وأردَّ هزيمتي وأطفئ نارَ الحقدِ التي في قلبي، لقد كرهتهُ إلى أبعد الحدود، ربّما لو أتتني من ضربتهُ كنتُ نسييتُ الموضوعَ ولم أعطهِ أيَّ اهتمام، لكن من المستحيل أن ينسى الإنسانُ هزائمَهُ، والغضبُ المكبوتُ الذي يأتي من شعور الإنسان أنه كان في موقفٍ لم يقدرهُ وغيرِ عادلٍ بالنسبة له "يبقى في قلبه حتى ينتصر"

عندما عاملتني الحياةً بشكلٍ غيرِ عادلٍ، اجتاحتني الغضبُ وتغلغلَ في
كياني، لكنني لم أستطع أن أصرخَ وأضربَها أو حتى أقطعَ يديها أو رأسها،
بل على العكس، كلُّ ما فعلتهُ أنني بقيتُ صامتاً هادئاً مصعوقاً، لكن على
الرغم من ذلك لم أستسلم، وعشتُ عمري كلَّهُ وأنا أحاولُ أن أفوزَ وأنتصرَ
عليها، ذلك الغضبُ دفعني لأن أبقى عالقاً في حربٍ لا معنى من الفوز
بها، الغضبُ الذي كان في قلبي تجاهها لم تخمدُ نيرانه، لكنه انتهى بموتي
وبانتصار الحياةِ عليّ وفوزها الذي كان مؤكداً، وللأسف لم أنتبه أنني لن
أستطيعَ مجاراتها.

ها أنا الآنَ ميتٌ ويا ليتني لم أغضبَ منها يوماً، يا ليتني تقبلتُ خسارتي
منذ البداية وعشتُ أيامي متجاهلاً، ربّما كانت ستمسي حياتي أجمل،
وعندها سيكونُ فوزي عليها أكبر.

فضول

وُلدتُ ولديَّ أحمُ توأمًا، شكلُهُ مطابقٌ لشكلي تمامًا، فنحنُ توأمٌ حقيقيٌّ، لكننا في الشخصية شخصان مختلفانِ بشكلٍ لا يعقلُ، صحيحٌ أن الكثيرَ من الدراساتِ تقولُ أن هناك تشابهًا في الشخصية بين التوأمين الحقيقيين، لكننا كنا عكسَ ذلك، كنتُ أنا أعشقُ الجلوسَ وحيدًا في هدوءٍ تامٍّ، أدرسُ أو أعملُ أو أستمعُ لموسيقا كلاسيكيةٍ هادئةٍ، أمّا هو فكان يحبُّ البشرَ والعلاقاتِ الاجتماعيةَ والسهرَ والرّقصَ والضجيجَ، أنا كنتُ مرتبًا وأريدُ كلَّ شيءٍ في نظامٍ، أمّا هو فيعيشُ بشكلٍ عشوائيٍّ وكان سعيدًا في ذلك. اتّفقنا منذُ كنا صغارًا أن نعيشَ مثلَ فردٍ واحدٍ، لذلك كان عليّ الجلوسَ وحيدًا، لأدرسَ وأتعلّمَ وأحقّقَ النّجاحاتِ، وهو عليه الخروجُ والتنزّهُ مع النّاسِ وتوطيدُ العلاقاتِ معهم، بذلك كلُّ منّا ينجحُ في مكانٍ، وبذلك نكونُ قد حقّقنا شخصًا واحدًا ناجحًا بكلِّ شيءٍ في هذه الحياة، أي حقّقنا الشّخصَ الأقوى في هذا العالمِ باتحادنا سويًّا، أنا قرّرتُ اتخاذَ هذا الموقفِ بأنّ عليّ الجلوسَ والدراسةَ، لأنني كنتُ ماهرًا بها، وكان لديّ القليلُ من الخجلِ في التّعاملِ مع الآخرين، أمّا أخي فهذا الأمرُ من أسهلِ الأمورِ عليه، كان محترفًا في التّعاملِ مع كلِّ النّاسِ، والجميعُ يحبُّه ويحبُّ الجلوسَ والتّعرّفَ عليه، خاصّةً بعدَ أن سمعوا عن إنجازاتِهِ العلميّةِ التي يعودُ الفضلُ فيها لي أنا.

كنا معًا نمثّلُ شخصًا متكاملًا بكلِّ معنى الكلمة، ناجحًا في كلِّ مكانٍ، عارفًا في كلِّ الأمورِ، ماهرًا في كلِّ شيءٍ، لقد كنا كلَّ شيءٍ. بدأتُ تسيرُ الأمورُ بطريقةٍ أخرى فيما بعدُ، فقد كان يسيرُ أخي في طريقٍ لا يشبهني من ناحيةِ علاقتهِ مع النّاسِ، وكنتُ أشعرُ بتعبي يتناثرُ مع الرّياحِ، فأخي هو من كان يفخرُ بنفسه أمامَ الجميعِ، هو من يحصلُ على المكافأةِ النّفسيةِ منهم، أمّا أنا فكنتُ مثلَ الآلةِ التي تعملُ ليلَ نهارٍ، وعملها كلُّه يسرُقُ منها! غيرَ ذلك لم أجربُ تلكَ الحياةَ التي يعيشها أخي، نعم كنتُ فرحًا بإنجازاتيِ بيني وبين نفسي، ولكن هذا لا يكفيني ولا يناسبُ تعبي، ففكرتُ في الموضوعِ مرارًا وتكرارًا، ثمّ قرّرتُ مناقشتهُ لنتفاهمَ على ما هو أفضلُ لي وله.

في يومٍ من الأيام جاء أخِي إلى المنزل، وكان يبدو على وجهه البؤس والانزعاج، سألتُهُ ما بك؟ فأجابني بأنَّ حياته لا تملك أيَّ معنى، وكلُّ النَّاسِ الذين تعرّف عليهم لم يجلبوا له إلا المشاكل والأذى النَّفسي، قال عني بأنِّي أعملُ وأبني نفسي، وأصبحتُ أعرفُ الكثيرَ في الحياة، بينما كان ينظرُ لنفسه بأنه شخصٌ جاهلٌ وعبرةٌ عن صفرٍ على السَّمال، لقد ملَّ من حياته التي لطالما أنا حلمتُ بها، ففاتحتهُ بالموضوع وأخبرتهُ أنني بدأتُ أكره حياتي التي أعيشها أيضًا، وأريدُ أن أجزّب حياته التي أجعلها بشكلٍ كاملٍ، بعد نقاشٍ دارَ بيننا، اتفقنا في النهاية أن نتبادل الأدوار، أن أتحوّل أنا لشخصٍ اجتماعيٍّ، وهو يعيشُ حياتي التي أحيها الآن!

كيف يمكنُ لنا أن نُشبع فضولنا تجاه الحياة ونفهمها أكثر، إذا لم ينتهي لنا أن نعيشها بكلِّ تفاصيلها وتناقضاتها؟ بينما كلُّ ما نُحرمُ منه يُصبحُ هاجسًا لدينا!

صحيحٌ أن اتّحادنا قوّة، ولكن قد يكونُ جهلنا ضعفًا أيضًا.

قرار

كنت متابعًا شرسًا للكثير من المسلسلات الرومنسية وقصص الحب تلك، التي تتمنى أن تعيش مثلها.

عندما يغمُر الحب الطرفين، يعيشان حياةً مليئةً بالمتعة والاهتمام، هذه الجنة والفيض من المشاعر التي تستطيع تغيير العالم من حولك، فيتحوّل من مكانٍ بائسٍ قبيحٍ إلى وردٍ وياسمين، إذ أردتُ أن أجربَ طعمَ الجمال هذا، أيّ تجمعتني الحياةُ بفتاةٍ أمضي وقتي معها بالضحك والسعادة التي لا توصف، لتجعلني بريئًا كما كنتُ في صغري أتصرفُ بلا حساباتٍ وتفكيرٍ مثل طفلٍ لا أكثر، غير أنني سئمتُ من تلك العلاقاتِ العابرة التي لا تملكُ في جعبتها إلا التمثيل والكذب، اليوم أصبحتُ ناضجًا، وما أبحثُ عنه هو فتاةٌ أختارها من بين جميع الأخريات لأكونَ معها غيرَ ناضجٍ، ثم أحقّقُ معها الاستقرارَ والزواجَ إذا نجحتُ تلك العلاقة، لقد عزمْتُ اتّخاذَ هذا القرار لأنّي أريدُ حياةً تحوي حبًا حقيقيًا خالصًا، بعيدًا كلَّ البعد عن الخبث والتلاعب، حبًا صادقًا فقط.

لديّ زميلةٌ في العمل، تبدو مناسبةً لتكونَ حبيبةً لي، وهي جميلةٌ ومثقفةٌ وعملها متقنٌ، انتقلتُ منذ أيامٍ إلى مكتبنا، لذلك صرتُ أتقربُ منها أكثر فأكثر، ثم بدأنا نخرجُ سوياً، كان كلُّ شيءٍ بيننا على ما يرام، فهي تكلمني بأجمل الكلمات، وعلى ما أظنّ تسلّلتُ حبي إلى قلبها، فقد أخبرتني عدّة مرّاتٍ على أنّي شخصٌ ظريفٌ وهي تحبُّ أن نخرجَ معاً، وتحبُّ التكتُّم والدعابات التي أقولها وتتمنى أيضاً أن تحظى بحبيبٍ يشبهني، كما أنّها قالتُ لي ذاتَ مرّة، بأنّ انتقالها إلى مكتبنا كان من أجل زميلٍ آخر في المكتب، فهو صديقها، لكنني اعتقدتُ بأنّها قالتُ هكذا كي تجعلني أغاز، فتلك حركاتُ الفتياتِ وأنا أعرفها جيداً، كانت تحدّثني كلَّ يومٍ وتسلّني عن تفاصيلٍ يوميّ دائمًا، اعتقدتُ أنني وجدتُ حبَّ عمري في أوّل فتاةٍ تعرّفْتُ عليها، بعد قراري بأن أحبّ حبًا صادقًا.

فكرتُ كيف سأخبرها بمشاعري، وقلّتُ في أعماقي أنّي سأقولُ لها عندما نخرجُ، وسأكونُ صادقًا كلَّ الصدق، فكلُّ سلوكها معي كان يشعرني بأنّها

تبادلني المشاعرَ نفسَهَا، بالفعلُ عندما خرجنا معًا أخبرتها في نهايةِ النَّزهةِ بكلِّ ما في قلبي، لكنَّ رَدَّهَا كانَ غريبًا! قالتُ لي بأننا صديقان لا أكثر، ولا يمكنكُ أن تكونَ أكثرَ من ذلك، فأنتَ لا تملكُ ما أريدهُ، وتتصرَّفُ الآنَ بغباءٍ ومن دونِ تفكيرٍ، نعم لقد كنتُ أتصرَّفُ بغباءٍ! عدتُ إلى المنزلِ وكأنَّ كلَّ أبوابِ الحياةِ أُغلقَتْ في وجهي، سألتُ نفسي لماذا كنتُ أظنُّ أنَّها تحبُّني، هل أنا أتوهمُ؟ أم هي شخصٌ سامٌّ ومتلاعبٌ لا يمكنُ التَّعاملُ معهُ بصدقٍ، يبدو أنَّ حبَّها لي كانَ في خيالي فقط! وقراري كانَ خاطئًا، فلا يمكنُ أن يكونَ قرارُ الحبِّ صدفَةً وحظًّا فقط، ويبدو أنَّني لستُ محظوظًا.

قصتي مع الخوف

كان الخوف صديقي منذ كنت صغيراً، كما أنه صديق الجميع، فهو من يحمينا من أنفسنا ومن المحيط، وينذرنا بأن هناك تهديداً ما قد يلاحقنا، لكنني عندما كبرتُ وأصبحتُ شاباً كنتُ أتجاهلهُ بشكلٍ مستمرٍ وأعتبرُهُ دليلاً للضعف، فالخوف ليس من شيم الرجال ولا أريدُ أن أكونُ جباناً، لأنَّ الجبناء لا يعيشون الحياة، وحدها الشجاعة هي من تجعلُ منا أشخاصاً مهمين، الشجعانُ هم من يفوزون دائماً في كلِّ مجالاتِ هذه الدنيا. أحببتُ المجازفةَ والمغامرةَ بكلِّ أشكالها، حتى أنني اتهمتُ بالتهورِ أحياناً، وكنْتُ أرى هذا التهورَ قوَّةً، وإنَّ أخطأتُ في يومٍ ما فهذا شيءٌ طبيعيٌّ، من ممَّا لا يخطئ، بل وعشقتُ تلك الأخطاءَ وتعودتُ عليها، وغصتُ فيها وتعلّمتُ منها فجعلتني أجمل.

فعلتُ كلَّ ما يحلو لي كمراهقٍ، أحبُّ الحياةَ وأحبُّ تجربةَ كلِّ شيءٍ، لم أعطِ أيَّ اهتمامٍ للمجتمع أو لصحتي، ولا حتى للخوف الذي في داخلي، عندما أخافُ من أمرٍ كنتُ أقدمُ عليه على الفورِ ومن دونِ أيِّ تردّدٍ، ربّما يسمونَ هذا "غياب العقل" لكنني كنتُ أنظرُ للعقلِ بوجهة نظرٍ أخرى تماماً، فهو لا يمكنُ اقتصارُهُ بمفهوم الخوف، وفي رأيي لا يمكننا أن نتعلّم ونطوّر من عقولنا من دونِ مجازفةٍ، ومن دونِ أن نمشي عكس التيار، وأن نحطّم كلَّ الجدران التي تواجهنا، الخانعون فقط لا يستطيعون التقدّم، وستكون هذه الحياة بالنسبة لهم، هي تلك الغرف المغلقة التي تجعلهم عمياناً ولا يدركون أهمية ما في الخارج، كنتُ أريدُ عندما أصبحُ كبيراً أن أملك قصةً لم يمتلكها أحدٌ، وأعيش ما لم يعيشه الكثيرون.

استمرّيتُ على هذه الحال عدّة سنواتٍ، وفي أحد الأيام، كنتُ في السيارة ومعني صديقتي بعد أن شربنا كميةً كبيرةً من الكحول، كنتُ مسرعاً لدرجة تتخطى العقل، وكانني أقودُ طائرةً لا سيارةً! اصطدمنا حينها في جدارٍ على جانب الطريق، تحطمتِ المركبةُ وتوفيتُ صديقتي، وأنا تشوّه وجهي وأصبتُ بكثيرٍ من الرضوض التي أمضيتُ مدّةً طويلةً حتى تعافيتُ منها، ندمتُ كثيراً على ذلك اليوم الذي غيّر في داخلي الكثير، تمنيتُ لو أنني

أصغيتُ لخوفي أو لعقلي في تلك اللحظة، فالتهورُ غباءٌ لا يقتلُ سوى صاحبه، غبائي دمرَ وجهي الجميلَ وقتلَ فتاةً في عزِّ شبابها وكسرَ قلبي وأضلعي، سمعتُ الكثيرَ عن شبابٍ في بداية حياتهم، وقصصهم تشابهُ قصتي، ويجبُ على الآخرين أن يتعلموا من هذه القصص، فذلك الحادثُ جعلَ مني شخصاً جديداً، وغيّرني إلى الأبد.

ما حدثَ معي جعلني فرداً لم يعد كما كان، لدرجة أن شكله تغير! كرهتُ وجهي، وكرهتُ غبائي الذي أوصلني إلى هذه النهاية، كان الندمُ يأكلني كلَّ لحظة، خاصةً عندما أنظرُ للمرأة، سيطرَ عليَّ الخوفُ وتملكني بشكلٍ مستمر، صرتُ أخافُ من نظرة الناس إلى وجهي، وأشعرُ دائماً أنهم يمقتونني ويكرهونني لما فعلتُ! أخافُ أن أتكلّم، أخافُ أن أتصرّف بشكلٍ عفوي، أخجلُ من وجودي وأحاولُ أن أبقى مختبئاً، في عقلي كلماتٌ تتردّدُ قائلةً آتي بشع من الخارج والداخل، فقدتُ روحَ المغامرة وروحَ الشباب، كنتُ أشعرُ بالخطر في أيِّ حدث، وبأية لحظة، أعيشُ بتوترٍ دائمٍ وقلقٍ ليس له أيُّ مبرر، أتوقّع أنني مخطئٌ بكلِّ حرفٍ أتفوه به، وبكلِّ سلوكٍ أتصرّفه، ليس مجردَ حذر، إنما تحوّلتُ إلى جبان، وهذا آخرُ شيءٍ توقعتُه لنفسِي. في يومٍ آخر من الأيام، كنتُ وقتها ما زلتُ في حالة الخوفِ المستمرة هذه، وصلني من أحدِ أصدقائي فرصة عملٍ تناسبني، والراتبُ كان رائعاً، وأنا أساساً كنتُ ماهراً في هذا العمل، لكنّه كان خارجَ البلدِ ويجبُ عليَّ السفرُ من أجله، لكن على الرغم من تشجيع كلِّ من كانوا حولي بضرورة الذهاب، كي أستغلَّ هذه الفرصة التي أتتني على طبقٍ من ذهب، أحسستُ بالخوفِ لأنني قد أفسل، ربّما لأتي خارجَ وطني وسأكون وحيداً وسينهييني التعب، في الحقيقة إن أكثر ما أثارَ الفزع في داخلي هي نفسي، نعم خفتُ من نفسي على نفسي من أن أخطئ خطأ لا يمكن إصلاحه، أن أوذي نفسي وأدمرها في مصيبة كبيرة، أن لا أسيطرَ على تصرّفاتِي وأتهوّر، إذ يوجد هكذا شيء في تاريخي، لذلك بعد تفكيرٍ رفضتُ هذا العمل، ولم يفاجئني أن أحدَ الأشخاص من الذين كانوا يعملون تحت إشرافي وكنتُ أستاذة، حصلَ على الفرصة نفسها ونجحَ في مقابلة العمل، ثم بدأ يعملُ هناك ويحصلُ على مبلغٍ شهريٍّ يضاهاه أضعاف ما أخذه أنا في الشهر.

لستُ أحسدهُ لكنني أشعرُ بالندم، فكلُّ المؤشّراتِ كانت تشيرُ على نجاحي

في هذا العمل، الندم هو صاحبي الآن فيما فعلتُ وفيما لم أفعل، لأني
تأرجحتُ بين حالتين تحملان الكثير من المبالغة في التهور والجبن،
وأدركتُ أنّ مشكلتي الأساسية كانت في الخوف، ففي المرة الأولى خفتُ
فتمردتُ على خوفي بالتهور، وفي المرة الثانية سمحتُ لخوفي أن يضع
سلسله فوق يديّ وسجنتُ نفسي.
لن أخاف بعد اليوم، لكن هذا لا يعني بتاتاً أن أقع في أخطاءٍ مروعة.

أهل

أتيتُ إلى هذه الحياة ولا أدري من هم أهلي! عشتُ في ميثم طوال عمري، أصبحتُ اليتيم المنبوذ الذي لا يملك انتماءً أو اسمًا يحمله، من الصعب على إنسان أن يتعاشٍ مع عدم وجوده، والأصعبُ عليه أن لا يعلم انتماءهُ هو ذاته، ألا يتعرّف على أهله، لقد أنكرتُ طوال هذه المدّة أنّي أملك أمًّا أو أبًا، كما أنّي كرهتهما لفترةٍ طويلة، فمن المستحيل أن يترك أهلُ ابنهم بهذه الطريقة البشعة، أنكرتُ امتلاكي لأمّ حملتني تسعة شهورٍ وحضنتني عند ولادتي، وأب يخرج صباحًا كي يعمل ويؤمّن لقمة عيشي كلّ يوم، ذلك الأب الذي بكى عندما جنّت إلى هذه الحياة.

أكثرُ ما كان يؤلمني هو شعوري بأنهم اضطروا على ذلك، أو ربّما ماتوا في حادثٍ أو هجّروا في حربٍ ما! كنتُ أفكرُ في كلّ لحظةٍ أنّهم سيأتون لمساعدتي، فأنتظرهم في كلّ ليلة، ولكن لا يأتي أحدٌ في النهاية، لقد ذهب أكثرُ من نصفِ عمري وأنا أنتظر، لقد بقيتُ وحيدًا بلا اسم، بلا انتماءٍ أو وجودٍ حتّى هذا اليوم، لكن أنا متأكّد أنّهم يحبّونني، متأكّد أنّهم مشتاقون لي، لذلك أنا أتخيّلهم معي في كلّ يوم.

أهلي، ربّما غضبتم عليّ لأنني كرهتكم، لكنني أحبكم، وفي النهاية أنا أنتمي لكم، أنا أعتزُّ عن ذلك، لا تلموا طفلًا طائشًا مثلي، متى ستأتون؟ ما زلتُ جالسًا هنا أنتظركم!

مسرحية

كنتُ أنظرُ لهذا العالمِ من حولي، وكنتُ أراهُ مثلَ مسرحيةٍ كبيرةٍ، ولم أعلمَ ما هو دوري في هذه المسرحية، ولماذا أنا موجودٌ هنا؟ ما الهدفُ من وجودي؟ ما القيمةُ منه؟ ومن يحدّدُ هذا الدّورَ؟ بحثتُ في كلّ شيءٍ خارجيٍّ، سألتُ أمّي ثم أبي، استشرتُ عائلتي جميعها، ثم انطلقتُ أسألُ أصدقائي، وبعدها إلى كلّ هذا العالم! أخذتُ رأيَ النّجارِ والمحامي والطّبيبِ والطّيّارِ، إلى القائدِ والمسؤولِ، في النّهايةِ حاولتُ استخدامَ الإنترنتِ، ومحرّكاتِ البحثِ لأعرفَ الأبحاثَ العلميّةَ القديمةَ والجديدةَ. لقد كنتُ مشتتاً وجاهلاً بمن أكونُ ولماذا أنا هنا؟ وما هو دوري ومن يعطي الأدوارَ لكلِّ من حولي؟

عشتُ في حالةٍ من الفوضى التي دمرتُ واقعي.

بعد كلّ ما حدث، استبدلتُ السّؤالَ اليوم، وأدركتُ من عليّ أن أسأل، ها أنا سألتُ نفسي، وكانتِ الإجابةُ بكلِّ بساطةٍ أنّي أنا المخرج، وأنا من أعطيتُ الأدوارَ لمن حولي، والأهمُّ من ذلك كلّهُ، أنا من أعطيتُ لنفسي الدّورَ الذي أريدهُ وأستحقّه.

قوة الشر

أنا أعظم وأقوى شريير يمكن لعينيكُم أن تراه، فكلُّ صفةٍ سيئةٍ موجودةٍ في هذا العالم تُعتبرُ جزءًا من شخصيتي، أنا أسوءُ إنسانٍ على وجهِ هذا الكوكب، وهذا ما يدعوني للفخر دومًا، فأنا أعتزُّ بما صنعتُ يداي، كأنني خلقتُ لأفسدَ الأرضَ وأتحدّى كلَّ طاقاتِ الخير، التي لا أنظرُ إليها إلا نظرةَ الاستهزاءِ لسخافتِها وتفاهتِها برأيي، بالإضافةِ إلى أنها هشةٌ لدرجةٍ لا تقوى على مواجهةِ نسمةٍ هوائٍ ضعيفةٍ.

أنا الحاسدُ الذي دفعتهُ الحسدُ للتحدّي والانجاز، أنا سيءُ الظنِّ الذي لن يتمكنَ أحدٌ منكم من الاحتيالِ عليه، أنا المجرمُ الذي يهائبُه الجميعُ ويخافونَ سماعَ اسمه، أنا البخيلُ والتَّصابُ والسارقُ الذي سيصبحُ يومًا أغنى منكم، أنا المؤذي الذي لا يشعرُ بتأنيبِ الضميرِ تجاهَ مشاعرِكُم ولا بالذنبِ، أنا المنافقُ المخادعُ الذي يتلاعبُ بالآخرينَ و يحركهمُ كيفما يريدُ، أنا المستغلُّ الذي ينتهزُ أيَّ شخصٍ أو فرصةً، لتحقيقِ مآربي ومصلحتي الشخصيةِ التي تبقى فوقَ الجميعِ، أخذُ كلِّ شيءٍ ولا أعطيُ أيَّ شيءٍ، أنا الخبيثُ الذي لا يمكنُك كشفهُ أبدًا، أنا الوقحُ الجذّابُ، أنا الغاضبُ الذي لن تستطيعَ الوقوفَ في وجهِ نيرانِ غضبهُ، أنا المغرورُ والمتكبرُ الذي يعلنُ دومًا تفوّقهَ عليكم، أنا زيرُ النساءِ الذي يغويهمُ في كلِّ لحظةٍ و مكانٍ، أنا الحاقدُ إن حاولتَ مضايقتي سيكونُ ردِّي تدميركُ بشكلٍ كاملٍ، أنا الكاذبُ المحترفُ، وهذا يعني أنني قد أصبحُ سياسيًا بارعًا وناجحًا في المستقبلِ، أنا الكسولُ وأنتمُ خلقتُم لخدمتي.

على الرّغمِ من كلّ القوّة التي أمتلكها الآن، لكن في الحقيقة أنا المتعبُ، لا بل المُنهكُ الذي أتعبني شري.

كون موازي

قبل أن أدخل في كلية الطبّ البشري، كنت محتارًا بينها وبين كلية الهندسة المعلوماتية، كنت أرى بأنّ المجالين ممتعين، فقد كنتُ أعشقُ العلوم الإنسانية وأحبُّ دراستها، حتّى أنّ مستقبل الطبّ جيدٌ جدًّا من ناحية المرتبة في المجتمع، ومن ناحية المردود المادي، كما أنّ الهندسة المعلوماتية مجالاتها واسعةٌ وجميلةٌ، فلقد كنتُ أحبُّ الرياضيات والعمل على الأجهزة، وفهم التكنولوجيا بشكلٍ أوسع، كان الخياران جيدين بالنسبة لي، ولكن بعد أن استشرتُ الناسَ وفكرتُ مليًّا، اخترتُ الطبّ البشري.

أمّا اليوم، فأنا نادمٌ كثيرًا على هذا الخيار، أشعرُ دائمًا بأنّي دمّرتُ حياتي بيدي، فكثرةُ الكتب والمعلومات، والطريق الطويل الشاق جعل النّدم يأكل قلبي كلّ لحظة، واختياري هذا لم يكن صائبًا أبدًا.

كنتُ أمشي مرّةً في فصل الربيع على أحد الجبال في أطراف مدينتي، وجدتُ بابًا على قمة الجبل، ففتحتُه ودخلتُ، عندها خرجتُ من الباب في الوقتِ نفسه! أثار الموضوع استغرابي كثيرًا، وكأنتي اكتشفتُ باب الدخول إلى الجنّة، أو هناك شيءٌ أشبه بالسحر، عندها عدتُ إلى بيتي مسرعًا كي أخبر أهلي بما رأيتُ، وعندما وصلتُ إلى المنزل قرعتُ الباب لأنّي نسيتُ مفتاحي قبل أن أخرج، الغريب في الموضوع، أنّ من فتح الباب لي هو أنا! نعم شخصٌ يشبهني تمامًا، حتّى أنّه يلبسُ لباسي المنزلي نفسه، سألتُه: من أنتُ؟

فردّ عليّ: أنت الذي عليك إخباري من تكون؟

كانت مظاهر العجب تبدو على وجهه مثلما تبدو على وجهي أيضًا. قلتُ له: هل تسمح لي بالدخول.

هو: تفضّل.

على ما أظن، أثرتُ الفضول في داخله، حتّى سمح لي بالدخول بهذه السرعة.

عند دخولي جلستُ في غرفة الجلوس، وكنتُ أفكر أنّ تلك البوابة التي دخلتها في الجبل، ربّما هي بوابة لكون موازٍ لكوننا.

أتى بالقهوة وطلب مني أن أخبره عن نفسي.
تكلّمنا وقلتُ له قصّتي، وكيف وصلتُ إلى هنا، وعن دراستي واسمي
وعمري وعدّة أمور، كما هو أخبرني عن نفسه.
لكن ما فاجأني أنّه كان يدرس الهندسة المعلوماتية، التي كنتُ أتمنّى أن
أعود بالزمن لأختارها، فتأكّدتُ حينها أنّي في كونٍ موازي.
أنا: هل أنت سعيدٌ بدارستك؟
هو محرّكاً رأسه بأسفٍ وبأسٍ وقال: لا أنا نادّم كثيرًا، أتمنّى لو اخترتُ
الطبّ البشريّ سابقًا.
عندها أدركتُ أنّي كنتُ ساندّم دومًا على كلّ خياراتي، ولا أعلم ما قد
يحدثُ لو أنّي اخترتُ غيرها.

مجنون

لقد كان الاحتفال يشتعل بصيحات النَّاسِ وحركاتهم الرَّاقصة الغريبة، كان الجميع يقفزون ويركضون كالمجانين، بعد أن شربوا أطنانًا من الكحول، لكسر كلِّ حواجز الخوفِ والتفكير الذي يمنع كلَّ شخصٍ من الجنون والحرية، حيث تمدُّ الشَّخصَ بالجرأة التي لطالما كان يحلمُ بها، تلك الجرأة التي نحتاجها لنصبحَ مجانينَ على طريقتنا، وكأنهم في حالةٍ من التمرّدِ على الحزن الموجودِ بداخلهم، إذ كلُّ شخصٍ يشعرُ بالانتماء لهذه المجموعة من النَّاسِ، وكأنَّ حزنهم اليومَ هو واحدٌ، حالةٌ من محاولةٍ لنسيان كلِّ الأسيء، ينظرون إلى بعضهم بحبِّ وسعادةٍ لا تراها في الأيام العادية، لا أحدٌ يريدُ أن يعكّرَ مزاجه، فالحياة بكلِّ ما تحملُ من همومٍ لا تساوي شيئًا الآن، وما هي سوى موضوع تافهٍ لا يحتاجُ أن يهتمَّ الإنسانُ لأمره أو يعطيه أيَّ قيمة، تلك الموسيقى القويَّة التي تخرجُ من مكبّراتِ الصّوت، هي نعمةٌ ثوريةٌ تجعلُ الغضبَ الذي بداخلِ النَّفوسِ يتفجّرُ بتلك الحركاتِ الجنونية، تعطيه الشّجاعة كي يخرجَ ويظهرَ إلى العلن، بعد صبرٍ طويلٍ الأمدِ عليه وعلى نيرانه التي تحرقُ كلَّ فردٍ، الآن هو يومُ الخروجِ من القوقعة، التي دائماً ما كانت تُبعِدُ الرّوحَ البشريَّةَ عن ذاتها الحقيقية، وتضبطها بقوانينٍ جائرةٍ لا معنى لها ولا تمتُّ للواقع بصله، فنُدخلها في حلقةٍ مفرغةٍ من الشّعورِ ومحاولاتِ رفضه التي تفشلُ في كلِّ مرّة، مع كلِّ ذلك الضّجيجِ والصّخبِ الذي يعمُّ الصّالة، كان "ثائر"

الشّخصَ الوحيدَ الذي يجلسُ وحيداً في إحدى زوايا الصّالة، هو لم يرقصَ مع الآخرين أبداً، فقط كان يدخنُ ويشربُ مشروباً غازياً، ولم يشربِ الكحولَ قط، كأنه في عالمٍ آخرَ وفي مكانٍ غير مكانه، ولم يكن عليه التّواجدُ في أماكن لا تناسبه كهذه!

لاحظَ أحدُ الأصدقاءِ وضعَ ثائر، فجاء إليه مُسرّعاً وعلى وجهه الكثيرُ من الدّهشة، ثمّ سأله: هل أنت مجنون! لماذا تجلسُ وحيداً هكذا؟

ردّ عليه ثائر: هل تظنُّ بأنني أنا المجنونُ أم أنتمُ المجانين؟

صديقُه: هل ترى نفسك عاقلاً بتصرفك هذا؟!

ثائر: نعم، ولستُ أنا المجنون، بل المجتمعُ هو المجنون، ثمّ إنّي أرى أنّ

من العقلانية أن تتفردَ بجنونِكَ الخاصِّ.
صديقُهُ: لَنْ أنكرَ أَنَّ المجتمعَ مجنونٌ، لكنْ هيا فَمُ وشاركنَا هذا الجنونَ قليلاً.

ثائر: من المستحيل أن تتمكّنَ وحدك من إقناعي بذلك.
صديقُهُ وبكلِّ ثقة: أعرفُ كيف أستطيعُ إخراجك من تلك الحالة.
ثائر: هيا أرني.

ذهب صديقُ ثائرٍ وطلبَ من مسؤولي الحفلة، إذاعةَ اسمِ ثائرٍ على مكبراتِ الصوتِ ودعوتهُ للرّقصِ.
وبالفعلِ أذاعوا اسمهُ وطلبوا منه المشاركةَ، حينها بدأ كلُّ مَنْ في ساحةِ الرّقصِ يصرخُ باسمِ ثائرٍ وينادونهُ للرّقصِ معهم.
وقفَ ثائرٌ وصاحَ بأعلى صوتِهِ: حسناً سأتنازلُ قليلاً وأشارككم هذا الجنونَ، ثم ركضَ وانضمَّ إلى الآخرينَ وشاركهم جنونهم الرّاقصِ.

مُسَيَّر

"لطيف" في الغرفة، ومعه صديقه "حكمت وفكرت" كان لطيف يطأطئ رأسه ويلبس بنطالاً قصيراً وسترةً ليس عليها أيُّ رسمٍ أو كتابة، شعره قصيرٌ يصفقه بطريقةٍ عاديةً، أما "حكمت" فكان يلبس بدلةً رسميةً كعادته، وكأنه مسؤولٌ مهمٌ في الدولة، أو صاحبٌ منصبٍ عالي، تبدو على وجهه الصلابة والعمرُ الكبيرُ، مع أنّ عمره مماثلٌ لعمر صديقه، وأما "فكرت" فلقد كان مميّزاً بشعره الطويل المبعثر، ولباسه المجدِّ الغريب الغير مرتّب، الذي إذا دلَّ على شيءٍ فهو يدلُّ على عشوائيةٍ في الحياة، وعدم احترامه لأيِّ نظامٍ أو قانونٍ.

تكلّم فكرت قائلاً: على لطيف أن يشرب الماء، فهو يشعرُ بالعطش.

فأجابهُ حكمتُ منادياً لطيف: هيا قم واشرب الماء.

نهضَ لطيف وذهب وشرب القليل من الماء ليطفئ ظمأه.

عادَ وقال "فكرت" هيا يا لطيف، افتح هاتفك التّقال وتصحّح مواقع التّواصل كعادتك، وأكّد على الموضوع "حكمت" ففتحَ لطيف هاتفه وبدأ بالتّصحّح،

وبينما كان يتصحّح لم يصبم "فكرت" أبداً، فهو دائماً يتصرّف بهذه

الطريقة، ففي اليوم الماضي كان لطيف نائماً وطوال الوقت كان فكرت

بجانبه، يحكي له قصصاً حتى وإن كان لطيف في نومٍ عميق.

توقّفَ لطيف عند تصفّحه على صورةٍ فتاةٍ كانت تعجبه سابقاً، فبادره

فكرت بالحديث، تخيل لو أنّك خرجت معها في نزهةٍ وقالت لك أنّك

تعجبها، وأنّ شعورك الذي تكنه لها هو شعورٌ متبادل! وأخبرتها عن حبك

ووافقت عليك وردت لك بكلِّ حبٍّ وودٍّ، ثمّ لاحقاً صرت تخرج معها كلّ

يومٍ تقريبا، واستمرّيت بالتّواصل معها على مدار السّاعة، ورفعت رأسك

بها بين الجميع وبين أصدقائك وعائلتك، وفي النهاية تزوّجتها وعشت معها

حياةً مليئةً بالحبِّ والهناء، ثمّ قال له، تفاعل على صورتها وعلّق لها تعليقا

جميلاً، مثلاً قل لها ما هذا الجمال!

ردّ حكمت، هيا علّق لها هكذا، لم يتردّد لطيف وكتب التعليق ونشره.

لاحقاً اقترح فكرت بأن ينهضَ لطيف ويحضّر فنجاناً من القهوة، ثم وافقه

حكمت في الرأي، فقام لطيف فوراً إلى المطبخ، ولحق به حكمت وفكرت، وبالتأكيد لم يصمت فكرت كعادته المملّة، فحدّث لطيف: تخيل يا لطيف أن تتجّح في جامعتك وتنفوّق على الجميع، ويتمّ تكريمك على مسرح الكليّة ويسلموا الكلمة لك، ستحدّث عندها من دون تفاخرٍ شديدٍ عن أهميّة الاجتهاد، وكيف يمكن للمرء أن يحقّق المستحيل بالتعب والجهد، ثم يطلبونك لمقابلاتٍ صحفيةٍ وتصبح شخصاً مشهوراً وملهماً لكلّ البشر، وأغلب الناس سيرونك قدوةً لهم، ويطلبون منك النصيحة في معظم مجالات الحياة، شارفت القهوة حينها على الانتهاء، بينما كان فكرت يتكلّم، فأخبره أن يصبّ القهوة في فنجان من الفناجين الفاخرة المخصّصة للضيوف، حتّى يشعر أنّه يحبّ نفسه ويدلّها، فردّ حكمت كعادته، هيّا فعلها، وسرعان ما فعلها لطيف مُطيعاً وأمرٌ صاحبيه.

قال فكرت: أظنّ أنّه حان الوقت ليأخذ لطيف فنجان القهوة إلى الغرفة، إذ يجبُ عليه أن يجلس ويشعلَ سيجارةً ويدخّنَها مع الفنجان، حتّى يعيش حالة المفكرين والعظماء.

ردّ حكمت: هيّا يا لطيف اذهب وافعل ما قال فكرت عنه. كالعادة، فعل لطيف المطلوب منه من دون أيّ اعتراض. بينما كان لطيف يدخّن السيجارة ويشرب القهوة، دار نقاش بين حكمت وفكرت، حيث بدأ النقاش بسؤال فكرت لحكمت قائلاً: هل يملك لطيف الإرادة لفعل ما يحلو له؟ هل يملك زمام الأمور برأيك؟ حكمت: لا أعرف بالضبط، ربّما يستطيع أن يفعل ما يريد. فكرت: لا أظنّ ذلك، فهو لا يمكنه أن يعيش من دون وجودنا، لكن من الممكن أن يتعلّم بعض الآليات للتأقلم معنا.

ضحك حكمت ثم أجاب: باعتقادك نحن مصيرُهُ وقدرُهُ في هذه الحياة؟ فكرت: تقريباً، فنحن من يقول له ما يجبُ عليه أن يفعل، وكيف ومتى، ونتحكّم بكلّ حركاته، حتّى أننا نذكّره دائماً بماضيه البشع وواقعه الأليم.

حكمت مكملاً جملةً فكرت: على الرّغم من كلّ ذلك، يظنّ نفسه يمتلك الحرية المطلقة بالاختيار! فكرت: تخيل أن يطلب منا التحرّر الآن، لأنّه يتوهّم دوماً أنّ الحرية حقيقة.

حكمت: هيا يا لطيف قل أنك تريد أن تتخلص منّا وتحرر.

لطيف: أريد أن أتخلص منكم وأحرر.

ضحك حكمت وفكرت وقال في اللحظة نفسها: هذا شيء مستحيل، إذا
تخلصت منّا فهذا يعني موتك، ونحن سجنك الدائم في هذه الحياة، يمكنك
فقط أن تتعلم كيف تتعايش مع وجودنا، لتجعلنا نعمل لصالحك قليلاً.

هروب لوحتين

أنا شخصٌ خياليٌّ مرسومٌ في لوحةٍ سُميتُ باسمِ "جورج" وعلقتُ في أحدِ معارضِ المدينة، حيثُ أطلقَ صانعي عليّ هذا الاسمَ بغريزتهِ البشريّة، ربّما لأنّ الإنسانَ لا يستطيعُ سوى إطلاقِ المُسمّياتِ على كلّ شيءٍ من حولِه، بسببِ خوفِه الدائمِ من المجهولِ، خوفِه ممّا لا يعرفُ، فيسمّي الأشياءَ كي يتوهمَ أنه أدركَ ما يحدثُ أو سيحدثُ ليفهمَه جيّدًا، كما أنّهم وضعوني في إطارٍ ليسجنوني في هذه اللوحة، رسموني بشكلٍ يشبههم ولا يشبهني حتّى، نسبوا لي صفاتهم وتجاربهم ومشاعرهم، وكلّ ما يخطرُ في بالهم وليس في داخلي شيءٌ من ذلك، علقتُ في إحدى المعارضِ حتى لا أهرب، صنعوني شابًا وسيماً وجميلاً بحسبِ معاييرِ الجمالِ التي وضعوها، ثمّ آمنوا بها، وها هم يأتونَ من كلّ مكانٍ حتّى يراقبوني وينظروا إليّ ليلتقطوا الصوّرَ معي، ويمدحوا ويعظّموا من صانعي الذي لم يأتِ بشيءٍ جديدٍ، بجانبِ لوحةٍ أخرى لفتاةٍ حسبَ تصوّرهم تبدو قبيحةً ومضحكةً! لكنّي أراها جميلةً ولم أحبّ شيئاً في هذا المكانِ بكميةٍ حيّ لها، لم يفعلوا شيئاً جميلاً في هذا المكانِ مثلها بالنسبةِ لي، وفي رأيي هي مختلفةٌ ولكنها تشبهني كثيراً، إذ تملكُ معاناتي نفسها، بلّ وتحمّلُ الألمَ أكثرَ منّي، حيثُ يتهمها البشرُ بالقبحِ ويضحكونَ عليها عندما يمرّونَ بجانبِها، والمشكلةُ ليستُ فيها فهي لم ترتكبِ أيّ ذنبٍ، بلّ المشكلةُ في دماغِ صانعِها وأفكارِهِ ونظريتهِ الغيبيّةِ للمرأة، لقد أحببناها وخطّطتُ للهروبِ معها من هذا المكانِ، ليبتنا نصنّعُ مكاننا الجميلَ بأنفسنا.

أولُ ما سنفعلهُ هو أنْ نحطّمَ ذلكَ الإطارَ الذي وضعونا فيه، نحنُ لا شيءٌ، أو كلّ شيءٍ، لنْ نقبلَ بوضعنا في صناديقٍ غيبيّة، ثمّ ساقبلُها قبلتنا الأولى، سنتمرّدُ على هذا العالمِ المغفلِ، ولنْ تسيرَنا قوانينُه بعدَ الآنِ.

دعينا نمشي في أرض بلا حدود
نذهب في رحلة إلى الأبد
رحلة من دون توقعات أو وعود
نمشي ولا يقف منا أحد
دعينا نحيا هذه اللحظة بكل رضا
نؤجل كل الآمناء إلى الغد
نحن اليوم نملك الكون والفضاء
دعينا نمشي يدًا بيد
لا تسميني حبيبًا ولا تنادي يا صديق
نحن أحرار والأسماء لم تُخلق لنا
لا داعي لأن نطير يكفيننا أن نعيش
دعينا نهرب بعيدًا عن هنا.

صناعة نسخة

كنا أنا وفارس وكرم جالسين على سطح بيتي نشرب الشاي ونتبادل أطراف الحديث، مثل أصدقاء يشعرون بالملل ويريدون التواجد برفقة بعضهم للهروب من هذا الملل الخانق.

كان كرم صاحب شخصية يمكن تسميتها بالموازنة بحسب معايير المجتمع، فهو ملتزم بالقوانين والعادات، يفعل مثلما يفعل الآخرون ويعيش بشكل طبيعي سليم، ولديه حبيبة مرتبط بها منذ مدة طويلة، يمكن وصف حياة كرم بالحياة العادية المرضية.

أما فارس فهو على العكس من ذلك تمامًا، كل شيء في حياته غريب، من قصة شعره إلى طريقة مشيته، إلى أفكاره المثالية الزائدة عن حدها أحيانًا، لم يكن يعطي أي اعتبار لمظهره أمام المجتمع، ولا لعاداته أو تقاليده، مما جعله محط سخرية في بعض الأوقات، لم يشعر فارس بالرضى عن نفسه وحياته، يسكنه دومًا صراع لا مخرج منه.

تكلم كرم محاولاً فتح حديث: ألم ترؤا صديقنا سمير كيف كان يرقص في الحفلة، يا الهي كم هو بشع، حتى ذوقه في اختيار بدلتِه الرسمية كان غبيًا! فارس بغضب كبير، وكان كرم استفزّه بكلامه: وما شأنك أنت! لماذا لم تتخلصوا من هذه العادة؟

كنت جالسًا أستمع إلى جدالاتهم المستديمة كالعادة.

ثم تكلم فارس بسرعةٍ وحول الموضوع لمحاضرة بعد أن سكت قليلاً: يجب على كل إنسان أن يحترم المساحة الشخصية للآخرين، وعلى جمهور البشر أن يدركوا أن أهدافهم السامية هي أهداف الفرد الواحد، عندما يعتاد البشر أن يتعدوا على مساحات بعضهم الشخصية كما يحدث في مجتمعنا، يفقدون أهدافهم السامية، ويصبح من السهل التلاعب بهم، إضافة إلى ذلك، هذا التعدّي عندما يصبح عادة لدى شعب ما، يؤثر ذلك على الأفراد ويفقدون قدرتهم على الانفراد بأنفسهم، إما يتحولون إلى نسخة، أو يصبح بداخلهم شعور محفور، فتصبح كل تصرفاتهم مبنية فقط على الاستعراض والمظاهر، كي يراهم الآخرون ويعطوا آرائهم بهم.

سَكَتَ وَتَنَهَّدَ ثُمَّ أَكْمَلَ: نحن بذلك ندمر منظومةً كاملةً يمثل تلك العادة، نحن ضعيفون ومشتتون، لأنَّ أيَّ إنسانٍ بفطرته يتأثر ويؤثر بمن حوله، فمن أنت لتحكّم على ما بداخل غيرك من تصرّفاتِه؟ مهما كان كلامك صحيحًا، لديك نسبةٌ خطأٍ ليست بالقليلة أبدًا.

كرم محاولاً أن يهدأ الأمورَ ويوقفَ هذا النقاشَ الذي بدا أنّه سيتحوّل إلى صراعٍ: حسنًا، معك كامل الحقّ.

كرم مرّةً أخرى: أنا بدأتُ أشعرُ بالنعاس، دعنا ننهي هذه الجلسة المسائية الهنيئة اليوم، وستنتقُ على جلسةٍ أخرى. ثم وقفَ وودّعنا وذهب.

فارس: حسنًا، اذهب إذا أردت، ويبدو من معالم وجهه أنّ ما حدث اليوم ذكره بشعورٍ كان يشعره يوميًا، وهو أنّ وجوده غير مرحب به وأنّه غير محبوب.

سألته: ما بك؟ لماذا وجهك مكفهّرٌ وحزينٌ هكذا؟

قال وكأنه يريد أن يبكي: في قلبي إحساسٌ بأنّي خسرتُ صديقي الوحيد الذي تبقى لي، بعد أن خسرتُ الجميع بسبب أسلوبِي الصّعب، إنّ النّدم يأكلني ولكن ما باليد حيلة.

قلتُ له: ما قصدك، أنا لستُ صديقك؟

فارس: سأخسرُك أيضًا.

ثمّ أمسك هاتفه النّقالَ وقال لي: سأتصلُ به، وعندها اكتشف فارس أنّ كرم قام بحظرة، ثمّ تأكّد من تطبيقات وسائل التّواصل، وإذ به محظورٌ عليها أيضًا!

شعرتُ بشعوره الحاليّ، بعد أن خيم الحزنُ عليه وارتسم الخذلانُ والخوفُ في عينيه.

على ما يبدو بدأت الأفكارُ والأسئلةُ تتزاحمُ في دماغه.

قال لي: هذه ليست المرّة الأولى التي يحدثُ معي هكذا!

أغلق فمه قليلاً ثمّ عاد وتكلّم: لماذا كلُّ ذلك؟ فقط لأنّي أتحدّث الحقيقة! فقط لأنّي صادق! لقد أمضيتُ حياتي وحيدًا، كنتُ معظمَ حياتي في غرفتي التي

كانت وكأنها سجنٌ يخنقني، لا أسمعُ إلا صوتَ أفكاري التي سئمتُ منها وتلك الأسئلة التي لم أجد لها إجابةً، أمنيتهُ اليومَ أن أحظى بالحبِّ الذي أحبُّ به الآخرين، أن أحصلَ على ما يحصلُ عليه أيُّ إنسانٍ طبيعيٍّ في هذه الحياة، "الاحترامُ والحبُّ" أن أكون إنسانًا مرغوبًا لا منبوذًا يبتعدُ عنه الجميع.

بدأتُ عيونُهُ تدمعُ وصوتهُ يخفتُ وهو يقول: نعم صحيحٌ أن عليَّ الحصولَ على التقديرِ من نفسي وسعادتي من داخلي، أنا إنسانٌ مثلَ البقيةِ ولدي حاجاتٌ اجتماعيةٌ تشبهُ الطعامَ والشرابَ، فالبشرُ كائناتٌ اجتماعيةٌ بطبيعتها، كم أتمنى أن تكونَ هذه الطبيعةُ غيرَ موجودةٍ في قلبي، لكنني عشتُ حرًا بعيدًا عن هذه الرغباتِ، حياتي عبارةٌ عن فراغٍ ينتجُ عنه مرضٌ لا شفاءَ منه، وينتجُ عنه غضبٌ مكبوتٌ لا يتمُّ تفرُّغُه، وكلماتٌ لا يمكنُ النطقَ بها، ومشاعرٌ وقيودٌ لا سبيلَ للحريةِ من بعدها، أنا الغريبُ الذي يخافُه كلُّ من يراه، أنا المميّزُ وتمييزي هذا هو مصدرُ الألمِ الذي أعاني منه، أنا غيرُ المرغوبِ الذي لم يشعرُ بالانتماءِ يومًا! أعيشُ بلا حزبٍ أو جماعةٍ أو أسرةٍ، أنا الوحيدُ الذي يمشي طريقَه وحدَه كلَّ يومٍ. بعدَ كلِّ ذلكِ الحزنِ والمشاعرِ السلبيةِ، نزلتُ دموعُ فارسٍ وصرخُ: سوفَ أمثلُ أنني أشبهُهُم كلَّ يومٍ، سوفَ أكذبُ وأكذبُ ثم أكذبُ.

لغة

كنتُ جالسًا مع صديقي كامل في مزرعتنا الخاصة، التي تحوي عددًا لا يُحصى من الأشجار المتنوعة، من البرتقال بأنواعه إلى التفاح والإجاص والزيتون

بالإضافة إلى أنها تحوي براداتٍ في داخلها فواكهٌ مبرّدةٌ من الشتاء. كانت الساعة تُشيرُ إلى توقيتِ السابعة والنصف مساءً في يومٍ صيفيٍّ، والشمسُ على وشكِ الغروب، السماءُ برتقاليةُ اللونِ والهواءُ ثقيلٌ لا يتحرّكُ، كان الحرُّ يذيني ولساني قد تصحّرَ من كثرة العطش. عندما نظرتُ إلى لونِ السماء، خطرَ في بالي أن أتناولَ برتقالةً لسدِّ ظمائي. أخبرتُ كامل: خطرَ في بالي أن أتناولَ برتقالةً، ما رأيك؟ كامل: نعم فكرةٌ جيدة، لقد أثرتَ في داخلي الرغبةَ بذلك أيضًا. أنا: ما نوعُ البرتقالةِ التي فكّرتَ بها؟ كامل: يوسف أفندي، ماذا عنك أنت؟ أنا: أبو صرّة. أكملتُ حديثي: ربّما مفهومُ البرتقالةِ يختلفُ بيني وبينك!

أمل

هذه هي النهاية، أنا واقفت في منزلي وأمامي السارق الذي دخله في الليل يريد سرقة، هو يضع مسدسه في وجهي ويهددني بأنه سيقتلني، لم يكن مثلما وحفظت وجهه عن ظهر قلب، يبدو خشن الملامح أجش الصوت، كان صوته يرتجف ويظهر عليه أنه خاض الألم والعذاب في حياته، حتى وصل به الحال إلى هنا، فشخصيته مهزوزة وأحلامه محطمة، وماضيه محزن وحاضره تعيس، أما مستقبله فمجهول يتمنى أن يغيره بمثل هذا السلوك الإجرامي، والسؤال المحير، لماذا بيتي أنا؟ فلست من الأثرياء أو المعروفين؟ أظن أنه لم يخطط للسرقة منذ فترة طويلة، والصدفة هي من جعلته يدخل بيتي، اعترف أنني شعرت حينها بأنه قرر قتلني لأنني عرفت شكله، ومن الممكن أن أخبر الشرطة ليتّم الإمساك به بسرعة، ولا يوجد حلّ بين يديه سوى التخلّص مني!

ناضلت من أجل ألا يقتلني، وأخبرته أن يأخذ كلّ الأموال التي أملكها، ووعدته بأنني لن أدلّ عليه ولن أخبر الشرطة، كان بداخلي أمل أنه قد يفتن بكلامي ولن يطلق النار عليّ، لكن الشكّ الذي سيمنعه من إكمال حياته المستقبلية بهنائٍ منعه من تصديق ادعائي، سألني وهو يتكلّم بصوتٍ خافتٍ خائف: أين تضع المال؟ فأخبرته على الفور، أردت من ذلك تهدئته، لكن في مثل موقف كهذا من الصعب أن يهدأ! ثم قلت له: إن قتلنتني ستصبح جريمتك أكبر، في الحقيقة كنت أتمنى أن يخاف أكثر ويتراجع عن قراره يقتلني، لكن يبدو أنه اتخذ القرار بارتكاب جرم أكبر في سبيل حماية نفسه، "أملاً أن ينفذ من العقاب".

بعد أخذه الأموال وضعها في كيسٍ أسود كبير، كأنه اشتراه خصيصاً ليضع به ما سيسرقه، قال لي: ماذا تتمنى قبل موتك المحتم؟ عندما لفظ هذه الكلمات غمرني إحساس بأن هذه هي نهايتي، لكن كان هناك شعورٌ في داخلي يخبرني بأن شيئاً ما سيحدث وينقذني من كلّ هذا، ربّما ستدخل الشرطة بسرعة وتلقي القبض عليه، أو سيكون مسدسه خالياً من الرصاص، المهم أنني سأعيش حياةً أبديةً جميلةً، وتمرّ هذه الضائقة مثلما

مرّت غيرها عليّ، يمكنُ أن تفيضَ مشاعرُ الغضبِ بهِ ويقتلَ نفسهُ بدلاً منّي، نعم هناك شيءٌ ما سيحدثُ كي أعيشُ، نعم سأعيشُ. فكرتُ بأنه يجبُ عليّ أن أقومَ بحركةٍ رياضيةٍ من حركاتِ الفنون القتاليةِ التي أشاهدها على الإنترنت، كي آخذَ المسدّسَ منه، ثم أهدّدهُ أنا وأستعيدُ المالَ وأسلمهُ لرجالِ الشرطَةِ، وبالفعلِ قمتُ بإحدى الحركاتِ، لكن كانت حركتي بطيئةً جدًّا، فلم أتدربَ من قبلُ على مثلِ هذه الحركاتِ، ولم أجهزُ نفسي لمثلِ هذه المواقفِ.

في اللحظةِ التي حرّكتُ يديّ أطلقَ الرصاصَ، فشعرتُ بالرّصاصةِ تخترقُ بطني وصوتها اخترقَ أذني، انفجرَ الدّمُ مثلَ قنبلةٍ كانت مجهزةً للانفجارَ، لم أشعرُ بالألمِ أبدًا! لكنني سقطتُ على الأرضِ، وكنْتُ أنزفُ بشدّةٍ منتظرًا موتي القريبَ، عرفتُ حينها أنّ دمي سينفذُ خلالَ دقائقَ معدودةٍ، لكنني فكرتُ عندها أنّه سيحدثُ أمرٌ ينفذُني، ربّما ستأتي الشرطَةُ والإسعافُ وسيتمُّ إنقاذي، وسأعيشُ طويلًا إلى نهايةِ عمري، أو أنني سأتحولُ لبطلٍ خارقٍ، أزيلُ الرّصاصةَ من جسدي وأقتلُ المجرمَ وأعيشُ طويلًا إلى نهايةِ عمري، اعتقدتُ أنّ الجيرانَ سيسمعونَ صوتَ الرّصاصِ ويدخلونَ لإنقاذي، وسأعيشُ طويلًا إلى نهايةِ عمري، أو السارقُ نفسهُ سيندمُ على فعلتهِ، ويأخذُني إلى المشفى ويعترفُ بما اقترفتُ يداهُ، وسأعيشُ طويلًا إلى نهايةِ عمري، أو كلُّ ذلكِ عبارةٌ عن حلمٍ سأستيقظُ منه، وسأعيشُ طويلًا إلى نهايةِ عمري.

بدأ جسدي يبردُ وأنفاسي تصبحُ بطيئةً، هذا هو الموتُ، أغمضتُ عيني وأنا متيقنٌ أنّي سأفتحهما مجددًا، أنا قلقٌ وقلقي يؤلمني أكثرَ من تلكِ الرّصاصةِ التي في جسدي، لن أموتَ اليومَ، من المستحيلُ أن تكونَ هذه هي نهايةُ عمري، من المستحيلُ!

خاضع

أنا المغدورُ من كلِّ مَنْ حولي، تعرّضتُ للخيانةِ مرّاتٍ كثيرةً، وهذا تركُّ في أعماقي شيئاً من عدم الأمان، جعلني أشعرُ بالتهديدِ دوماً، فكلُّ حدثٍ أو تفصيلٍ مهما كان صغيراً، يبعثُ في صميمي همّاً و شكّاً لا ينتهيان، لا أعيشُ حياتي مع الآخرين بشكلٍ سهلٍ، بل حياتي صعبةٌ، إنني أصعدُ جبلاً وأنزلها كلَّ يومٍ، هذه هي حياتي الاعتياديةُ، وفي رأيي هي ليست حياةً تستحقُّ أن تُعاشَ، هي شقاءٌ وعناءٌ متجدّدٌ مثلَ نهرٍ لا يجفُّ ماؤه، إنني أعيشُ أسطورةَ "سيزيف" بشكلٍ حقيقيٍّ، في كلِّ يومٍ أدفعُ صخرةً كبيرةً إلى رأسِ الجبلِ، ثمّ تعودُ وتنزلُ، فأعودُ لدفعها من جديدٍ! وهذا يحدثُ مرّاتٍ عديدةً في يومٍ واحدٍ، ثمّ أذهبُ وأناّمُ في آخر الليلِ، متأملاً أن يكونَ نومي هنيئاً، لكنّ ما يحدثُ هو العكسُ، فكلُّ ما أراه هو الكوابيسُ والقلقُ المستمرُّ، حتّى النّومُ أصبحَ مثقلاً بالهمومِ والخوفِ.

أولُ خيانةٍ تعرّضتُ لها عندما كنتُ في السادسةِ من عمري، سرقتُ عندها قطعةً حلوى من متجرٍ قريبٍ من منزلنا، كنتُ وقتها مع صديقي وكان طفلاً من عمري أيضاً، أخذتها وركضتُ مسرعاً، فأمسكُ صاحبُ المتجرِ بصديقي وقالَ له، سأعطيكُ قطعةً حلوى مجّانيةً، إن أنتَ أخبرتني مَنْ هو هذا الطفلُ وابنُ مَنْ يكونُ؟ على الفورِ أخبره ولم يتردّد، سمعَ أبي بالذي حدثُ، فعاقبني لمدّةِ اسبوعٍ وحرمني من المصروفِ، شعرتُ عندها بالحزنِ والخذلانِ، وقطعتُ علاقتي بصديقي الذي فعلها، أدركتُ وقتها أنّ النّاسَ يخونونَ أحياناً من أجلِ المالِ، أو لتحقيقِ مصلحةٍ أو فائدةٍ أو غايةٍ ما!

الخيانةُ التّانيةُ حصلتُ في أيّامِ المدرسةِ، كنتُ صغيراً وأحببتُ أن أصبحَ طفلاً مشاعباً، ولم أدركَ لماذا تهوّرتُ وفعلتُ ذلك؟ اعتقدُ أنّ السّببَ كان عندما سمعتُ من أخي الأكبرِ منّي كيف يشاعبونَ في المدرسةِ، فقرنتُ في عقلي هذا الأمرَ بالتّضحكِ والكبرِ في العَمَرِ، ذهبتُ إلى حصّةِ الرّسمِ، وكان أستاذي جالساً على كرسيٍّ في منتصفِ الصّفِّ، طلبَ منّا أن نرسمَ، تحجّجتُ في ذلك الوقتِ أنّي أريدُ أن أرميَ ورقةً في السّلةِ، فرميتها، وبينما كنتُ في طريقي للعودةِ إلى مقعدي، قلّدتُ الاستادَ كيف يمشي بطريقةٍ مضحكةً، لاحظَ كلُّ مَنْ في الصّفِّ ذلكَ، فضحكَ بعضهم وآخرونَ لم

يهتمّوا، لكنّ صديقتي كانت تملكُ شخصيةً تعشقُ الرّتابَةَ والنّظامَ، وهذا الشّيءُ محفورٌ في دماغها بأن تكونَ أمانةً وصادقةً بشكلٍ زائدٍ عن اللازمِ، فذهبتُ وأخبرتِ الاستادَ بما فعلتُ، ففصلوني من المدرسةٍ لمدةٍ ثلاثةِ أيّامٍ، بعد هذه التّجربةِ، أدركتُ أنّ النّاسَ يخونوكَ لأنّ شخصيتهمُ غريبةٌ أحياناً. أمّا الخيانةُ الثّالثةُ، فكانتُ حبيبتي والفتاةُ التي اخترتها لتكونَ شريكةَ حياتي، حدثَ ذلك في بدايةِ شبابي، وكانت من أوائلِ الفتياتِ التي عرفنهنَّ في عمري، كانت علاقتنا منذ نشأتها جميلةً وتحملُ في طياتها كمّاً كبيراً من الأحداثِ والتفاصيلِ التي صنعتُ لوحةً من المشاعرِ والأحاسيسِ الرّائعةِ، لكنّ في الأشهرِ الأخيرةِ اختلف كلُّ شيءٍ، حيثُ خيمَ على علاقتنا المللُ والروتينُ القاتلُ، الذي جعلَ منها قبيحةً بالنّسبةِ لها، فالتجأتُ للخيانةُ، كونها صغيرةً وعضّةً في العمرِ، فرأتُ أنّ المللَ شيءٌ بشعٌ، ولم تكنُ تدري أنّه جزءٌ أساسيٌّ من الحياةِ، ولا يمكنُ الهروبُ منه، وأنها ستمضي بقيّةَ حياتها متأقلمةً ومتعايشةً معه، دفعها ذلك لخيانتي مع شابٍ يحملُ الحماسةَ للحياةِ، وشجاعةً مكنته من تقديم ما كانتُ تريدهُ، تأكّدتُ في تلكِ المحنةِ أنّ الإنسانَ يخونُ أحياناً بسببِ الرّغبةِ.

الخيانةُ الرّابعةُ كانت من أحدِ أعزِّ أصحابي، كنتُ أعتبرُهُ من المقرّبينِ والأخوةِ، عرفتهُ منذ كُنّا أطفالاً وحتى مرحلةِ الشّبابِ، لكنني كنتُ أشعرُ من سلوكه تجاهي وردودِ أفعاله أحياناً أنّهُ لا يحبّني، أو أنّهُ يخبئُ نحوِي مشاعرَ لا يظهرها، فعيونهُ كانت تقولُ بأنّه ليس صادقاً والعيونُ لا تكذبُ، إذ لم يكنُ يفرحُ لنجاحي ولا يشجّعني على التّقدّمِ، ولم يكنُ يحزنُ لحزني، بل كنتُ أشعرُ في لحظاتٍ ما أنّهُ يكونُ سعيداً عندما أنزعجُ، على الرّغمِ من كلّ ذلكِ كنتُ لا أعيرُ اهتماماً لهذه الأفكارِ، وأعتبرها وسواساً لا قيمةَ له، فعملتُ جاهداً على نسيانِ هذه الأفكارِ التي حاولتُ إيقاظي قبل أن أسقط، وجعلني صاحباً لما يمكنُ أن يحدثَ مستقبلاً، لقد أخبرتهُ بأسراري وتفاصيلِ أيّامي، حتّى حفظَ شخصيتي وأصبحَ يعرفني أكثرَ ممّا عرفتُ نفسي أنا، وفي كلّ لحظةٍ أخبرتهُ فيها بأمرٍ ما، كنتُ أطلبُ منه ألا يخبرَ أحداً، لكنّ في النّهايةِ اكتشفتُ بأنّه كان خائناً، لأنّه أخبرَ أسراري للجميعِ، وجعلَ الآخرينَ يشعرونَ بأنّي غيبٌ، فقط لأنني كنتُ صادقاً معه، في الواقعِ لم أحزنُ كثيراً، لأنّني أيقنتُ أنّ شكوكي كانت في محلّها، فامتلكتُ

سببًا حتى أبتعد عنه في هذه المرّة، وعرفت حينها أنّ صديقك يحوّلك إنّ كان يكرهك منذ البداية، بغضّ النظر عن السبب إنّ كان غيراً أو سبباً أنت فعلته.

الخامسة كانت في العمل، كان لديّ زميلٌ في المكتب، وسرّعان ما أصبحنا أصحاباً مقربين، كنّا نتحدّث دومًا في أمور العمل، وعن بطش المدير وسلطته المؤدّية، لكننا مضطّرونّ للبقاء في المكتب حفاظًا على وظيفتنا ورواتبنا، فهو السند الوحيد الذي يعيننا على هذه الحياة، ولولا حاجتنا تلك لكنّا تحرّرتنا من هذا القيد الذي يحرّمنا من حرّيتنا، كنت أطمح لبناء مشروعٍ الخاصّ خارج نطاق هذه الوظيفة المحجّفة بحقيّ وبحقّ زميليّ المقرب، فأفصحت لزميليّ عن فكرة تدور في دماغي، كانت الفكرة مميزةً وستمكّنني بمبلغ صغير أن يعود عليّ بكثيرٍ من الفائدة، فيتحقّق تحرّري من سلاسل هذه الوظيفة الجائرة، كانت السبيل الوحيد لإنفاذي، والسبب الذي أحفظ به ويمدّني بالأمل في حياة أفضل وأجمل، وحين أخبرته بها كان من المشجّعين لي فشكرته على ذلك، عندما رأني المدير بدأت أتكاسل في عملي ولا أعطيه طاقتي المعهودة، فدارت الشكوك في رأسه، وسأل زميلي عن مشروعٍ الجديد الذي أريد أن أصنعه، وهدّده بأنّه إذا لم يخبره الحقيقة سيفصله من الوظيفة، عندها خاف زميليّ على نفسه وعلى مستقبله المهنيّ، فقال له كلّ شيءٍ وأفشى السبب الذي اعترفت له به، فقرّر المدير فصلني من العمل، وركض مسرعًا لتنفيذ مشروعٍ قبليّ، فسرقه مني بكلّ بساطة، أدركت عندها أنّ الناس تخون لحماية أنفسهم في بعض المواقف. على الرّغم من كلّ تلك الخيانات، التمسّت عذرًا لكلّ الخونة في حياتي، وغفرت لهم ذنوبهم وسامحتهم في النّهاية، إلّا شخصًا واحدًا فقط لم أتمكّن من مسامحته، هو أنا! فأنا السبب في كلّ ما حدث، أنا من سمحت لهم بذلك، أنا أوّل من خنت نفسي!

حقيقة

كنتُ جالسًا مع صديقتين مقربتين لي كثيرًا، عشنا مع بعضنا فترةً طويلةً وأصبحنا أصحابًا منذ فترة المراهقة، لم ننسَ بعضنا ولم نغيّرنا الظروف، فهُنا بعضنا البعض وعرفنا كلَّ تقلباتنا المزاجية، والمرات التي سقطنا بها والأخرى التي شعّرنا فيها بالسعادة.

كنا جالسين في أحد المقاهي نشرب القهوة، إلا نور كانت تشرب الشاي، فهي تكره القهوة لأنها تشعرها بالنعاس، على عكس ما هو شائع عند الآخرين، أمّا ريتا فشربت القهوة لأنها مشروبها المفضل، وتفصله أكثر عندما تقرأ بجانبه رواية أو كتابًا جديدًا، فهي مدمنة كتب و قراءه، كانت الأغاني قديمةً وجميلةً، واخترنا هذا المقهى لتقابل فيه لأنه مقهى قديم، والكثير من أيامنا عشناها فيه، حتى أنّ صاحب المقهى الكبير بالعمر، أصبح يعرفنا حق المعرفة، فحنّ زبائنه القدامى الذي اعتاد وجودنا، حتى أنه أحيانًا يرفض أن نعطيّه المال مقابل جلوسنا هناك أو مقابل طلباتنا.

دخلنا في عددٍ لا ينتهي من الأحاديث، وكنا ندخل في موضوع لا يكاد أن ينتهي حتى ندخل في موضوع آخر، تحدّثنا عن الأيام القديمة وكيف كانت أشكالنا، ريتا كان معها صورٌ عتيقة جدًا على هاتفها النقال، تلك الصور بنّت في داخلنا شيئًا من الحنين إلى الماضي، ما رسم على وجوهنا علامات السعادة، طغت أصوات ضحكاتنا على المكان، فلاحظ الجميع في المقهى كمية الحب الموجودة بيننا والتناغم والانسجام، لم نسكت ولا للحظة واحدة، فالكلمات ممتدة إلى اللانهاية، كما هي ذكرياتنا أيضًا.

تذكرنا ذكرى سيئة حصلت معي ومع ريتا، كنا وقتها على دراجتي النارية وأنا من كان يقود، سرعنا كانت متوسطةً والجو كان مطرًا في منتصف الشتاء، فجأة ظهرت أمامنا سيارةٌ تسير في عكس اتجاه السير، فارتطمنا بها وسقطنا أرضًا، عندها كُسرت ساقِي، أمّا ريتا فلم يحدث لها سوى جروح بسيطة، أمّا السيارة فصدمتنا وهربت، ولم تترك وراءها أي أثر يُذكر، بينما تحطمت دراجتي، لذلك حملنا الناس الموجودون في مكان الحادث إلى المستشفى على الفور.

دار نقاشٍ عقيمٍ بين ريتا ونور عند التَّكَلُّمِ عن هذا الحادثِ، قالتُ نور أنَّه لم يتَّصل معها أحدٌ ليخبرها بما حدث! بل عرفتُ من شخصٍ كان ماراً في مكانٍ وقوع الحادثِ.

أما ريتا فلم توافقها الرَّأي، واعترضتُ على كلام نور وقالتُ: أنا من اتصلتُ بكِ لتأتي إلي المشفى.
نور: لا أنتِ لم تتصلي أبداً، أنا ذهبتُ من تلقاءِ نفسي عندما سمعتُ بما حدث من ذلك الشخصِ.

دار الصِّراعِ بين نور وريتا، وكادَ أن يتحوَّلَ إلى شجارٍ وضربٍ بالكراسيِّ والكؤوسِ، فحاولتُ تغيير النَّقاشِ وتهدئةَ الأمورِ، حتَّى يستمرَّ لقاءنا هذا بطريقةٍ سليمةٍ ومسليَّةٍ.

لكنَّ هناكَ سؤالٌ خطرَ في بالي ذلك الوقتِ، من الممكنِ أن تكونَ ريتا مخطئةً ولم تتصلُ بنور أبداً، أو ربَّما نور هي من نسيتِ الاتِّصالَ بريتا، وقد تكونُ كلاهما على خطأ، لكنَّ في الحقيقةِ هناكَ شيءٌ واحدٌ قد حدثَ، لماذا إذنُ في ذاكرةِ كلِّ من نور وريتا هناكَ سياريو مختلفٌ؟ قاذني هذا إلى السُّؤالِ الأعظمِ، هل كلُّ ذكرياتنا حقيقةً!!!!

فن

يوجدُ في قريتنا الصَّغيرة مُطربٌ مشهورٌ يسمَّى بملك الغناء، لا يحدثُ حفلٌ أو عرسٌ أو خطبةٌ في القرية إلا ويغنِّي فيها، كانتُ تنتظرُهُ الجماهيرُ حتَّى يأتي ويبدأ بالغناء، إلى أن وصلَ به الأمرُ لإنشاءِ أغانٍ من تأليفه وتلحينه، فنتشرُ أغانيه كما ينتشرُ الوباءُ بسرعةٍ كبيرةً، حيثُ كلُّ بيتٍ في القرية لديه أقراصُ تسجيلٍ لأغانيه الجميلة، كلُّ ذلك بسببِ عشقه للموسيقا منذ صغره، وتشجيعِ أهله على ذلك، إضافةً إلى عمله في الموسيقا، أي عملٍ بالشيء الذي يحبه، فحظيَ باحترامٍ وتشجيعٍ من كلِّ سكانِ هذه القرية الصَّغيرة وشعبها الذي يُعتبرُ غيرَ متعلِّمٍ بشكلٍ كبيرٍ، إذ أغلبُ النَّاسِ هنا يعملونَ بالزراعة، وكانتِ الموسيقا بالنسبة لهم استراحةً الليل.

بعدَ كلِّ هذا الدِّعمِ والتَّشجيعِ من النَّاسِ، قرَّرَ الاشتراكَ ببرنامجٍ تلفزيونيٍّ للغناء، يقومونَ في نهايته باختيارِ الفائزِ الذي سيصبحُ ملكَ الغناء في دولتنا، وعندما عُرضتِ الحلقةُ التي يظهرُ فيها مطربنا المحبوب، كان كلُّ أهلِ القرية يشاهدونها بتركيزٍ كبيرٍ، لكنَّ كانتِ المفاجأةُ عندما دخلَ وقابلَ لجنةَ التَّحكيمِ، بدا عليه الارتباكُ والتوترُ، حتَّى صوتهُ لم يكنْ كما عهدناه، ولم ينتقِ أغنيةً مناسبةً للنمطِ المناسبِ لصوته، وللأسفِ لم تجرِ الأمورُ على ما يرام، بل رفضوه بشيءٍ من السَّخرية وقالوا له: مَنْ شجَّعَكَ على الغناء؟

ردَّ عليهم بتوترٍ وخوفٍ: أهلي وجميعُ سكانِ قريتي.
فقالَ له أحدُ حكَّامِ اللِّجنة: يبدو أنَّهم جاهلون، هيا اخرج من هنا.
لم يسبِّبِ الرَّدُّ صدمةً له وحده، بل كان صدمةً لكلِّ أهالي القرية، وكانَ الحكمُ استهزئاً بشعبٍ كاملٍ لا يفردِ واحد.
في الحقيقة، إذا نظرنا لصوته بطريقةٍ أكاديمية، لم يكنْ صوتهُ أجملَ صوتٍ في هذا العالم، ولم تكنْ أغانيه أجملَ أغانٍ على كوكبِ الأرض، لكنَّ الرَّدُّ كان يحتوي شيئاً من القسوة.

عندما عادَ مطربُنا المعروفُ إلى بيته وأسرته، كان يريدُ التَّوقُفَ نهائيًّا عن الغناء، وتجربةَ شيءٍ آخرَ يعملُ به، وكأنَّهُ شعرَ بداخله أنه ليس مجاله، ومع ذلك كُنَّا كُلُّنا نعرفُ أنَّه يحبُّ الغناءَ ويعشقُه، فقد تربَّى على هذا الأمرِ منذ صغره، لذلك وقفنا جميعًا في وجهِ فكرتهِ الجديدةِ، فمن سيحيي حفلاتنا مستقبلًا؟ ومن سنستمعُ إليه ليُطربَ أذاننا في سهراتنا القادمة؟ كما أننا أردنا أن نردَّ على السَّخريةِ التي وُجِّهتْ لنا، فنحنُ لسنا جاهلين كما قالوا عَنَّا.

المهمُّ، استمرَّ صديقنا في الغناءِ وكتابةِ الأغاني وتلحينها يومًا بعد يومٍ، وشهرًا بعد شهرٍ، وسنةً بعد سنة، حتَّى وصلتْ أغانيه إلى العالمية، فحقَّقَ نجاحًا باهرًا لم يكن ليحدث، لولا محيطُه الذي آمنَ به وشجَّعه. ربَّما صوتهُ ليسَ أجملَ صوتٍ، وكلماتُه ليستَ أجملَ الكلماتِ، وألحانهُ ليستَ أجملَ الألحانِ، لكنَّهُ يفعلُ ما يحبُّ من قلبه، وكلُّ هذا يخرجُ تعبيرًا عن حزنه وفرجهِ وماضيه وحاضره، وعن أفكاره ومشاعره، ربَّما هو ليسَ أفضلَ فنَّانٍ في كوكبنا، لكنَّ هذا هو الفنُّ، والفنُّ ليسَ حكرًا على أحدٍ، الفنُّ خُلِقَ ليميزَ البشرَ عن الآلاتِ، إنَّ الفنَّ للجميعِ.

نرجسي

أنا شابٌ لستُ مثلَ الشَّبابِ الآخرينَ، أنا الطَّفرَةُ والمختلفُ والمميَّزُ، لا شيءٌ يلفتُ نظري، إنّما أنا من ألفتُ الأنظارَ، الأضواءَ دائماً موجَّهَةٌ نحوِي، كأنني مركزُ هذا الكونِ، والنَّاسُ من حولي ينقسمونَ إلى قسمينَ، أشخاصٌ يعشقونني ويتَمَنونَ أن أكونَ معهمَ بآيَّةِ طريفةٍ، ويفعلونَ المستحيلَ لتحقيقِ ذلكِ، ولو اضطرَّوا للتوسَّلِ بشكلٍ مباشرٍ، وأشخاصٌ آخرونَ يكرهونني لأنهم يغارونَ مني، ويحلمونَ بأن يصبحوا مثلي ليلَ نهارٍ، لأنهم يعيشونَ حياتهم في تقليدي ونسخ شخصيتي، لكنهم لن يتمكنوا من ذلكِ، فمن الصَّعبِ التحوُّلُ إلى إنسانٍ مثلي.

لا أحدٌ يملكُ مهارتي في عملي وذوقي، في اختيارِ كلماتي وحُسنِ سلوكي وأسلوبِي في الحياة، ذلكَ ليسَ غروراً، إنّما هو حبٌّ لذاتي وعشقٌ لها، في كلِّ يومٍ أنظرُ لنفسي في المرآة، فأرى أوسمَ شابٍ وأفضلَ بطلٍ في هذا العالمِ، أنا نعمةٌ لكلِّ إنسانٍ تعرَّفَ عليّ، وتلكَ النعمةُ لا تقدَّرُ بثمنٍ، أمَّا بالنسبةِ لذكائي فهو على أعلى المراتبِ، وإنجازاتي مهما حاولتمُ التقليلَ من شأنها، ستطمحونَ لتحقيقِ ربعها، إنَّ الفتياتِ متيماتٌ بي وأحاديثهم مستمرةٌ عني، وأنا متأكدٌ أيضاً بأنهم يتحاربونَ من أجلي، لا بدَّ أن هناكَ حرباً قائمةً من خلفي، لا أعلمُ تفاصيلها ولكنَّها بكلِّ ثقةٍ موجودةٌ، أمَّا بالنسبةِ لإنجازاتي القادمةِ فترقبوا، أنا أعرفُ أنكم تنتظرونها بفارغِ الصَّبْرِ، يوماً ما سأبني امبراطوريتي التي تشملُ الكوكبَ كلَّهُ، وسأتوجَّ الملكَ عليها، أنا أقوى محاربٍ عرفه التاريخُ، و أسوءُ خصمٍ عادهُ أحدٌ، لا يمكنكُ الفوزَ أمامي، ففي كلِّ مسيرتي لا يوجدُ مجالٌ للخسارة، أنا المنتصرُ في كلِّ صراعٍ وجدالٍ أو حربٍ، والمكانُ الذي أضغُ حذائي بهُ، هو حلْمٌ للجميعِ.

رَن هاتفي النِّقالَ، يبدو أنَّها حبيبتي ماريًا.

ماريا: كيف حالك؟

أنا: جيّدٌ، كيف حالك أنت؟

ماريا بنبرة صوتٍ ضعيفةٍ مرتجفةً: أنا حزينةٌ بسببِك.

أنا: ماذا فعلتُ لكِ حتَّى تكونينَ حزينةً بسببي؟

ماريا وهي تبتلع دموعها: منذ بدء علاقتنا وأنت لا تهتمُّ بي على الإطلاق،
وتعاملُنِّي وكأنَّني أداة للتسلية.
أنا: بالتأكيد لَنْ أهتمَّ بك، فلقد حققتُ غايتي ومرادِي من علاقتي معك.
ماريا: ما هي الغاية والهدف الذي حققتَه؟
أنا: لقد أحببتني وهذا ما أريده، يكفيني ذلك لإشباع غروري، اتركيني
وشأنِي، لسنا بحاجةٍ لاستمرار علاقتنا بعد الآن.

مطر

ها هو المطرُ يهطلُ الآنَ ويتساقطُ على رأسي، يذكّرني هذا الجوُّ بغضبي الذي لطالما عاندتهُ وأخفيتهُ عن الجميع، لكنّي لم أستطع إخفاءهُ عن نفسي. يذكّرني أيضًا بحزني العميق الذي اعتبرهُ بيتي الآمنَ وفصلي الدائم، وحلمي الضائعَ وهويتي المفقودة، ذلك الحزنُ الجميلُ والقناعُ الضاحكُ، والفكرةُ التي لا تتركّني فأحببْتُها وتعوّدتُ عليها.

يذكّرني أيضًا بأحلامي الكبيرة المرعبة، التي ذهبتُ هربًا منها فمزقتُ جسدي ندمًا وتركتُهُ يتعدّبُ كلَّ يوم.

يذكّرني بلدي الذي تحطّمَ إلى أجزاءٍ مشتتةٍ أخذتُ معها أصدقائي، ليصبحوا مشرّدينَ مشتتّين، فيتشرّدُ قلبي معهم كأنهم وطنٌ ضائعٌ وحكايةٌ من دون نهاية.

يذكّرني بوحدي التي كانتُ دائمًا صديقتي وعائلتي، إضافةً إلى أنّها كانتُ حقيقتي التي ابتعدتُ عنها كثيرًا، حتّى واجهتها وقلبتُها في نهاية الأمر. يذكّرني بالحياة وبشاعتها وجمالها في آنٍ واحد، وبمحاولتنا الدائمة في التعايش معها لنستمرّ فيها ونرجو بقاءنا الأبدية الذي لا نعرفُ لماذا نريده؟ لكننا مُصرونّ على هذا القرار.

يذكّرني بالحرب التي لا ترحمُ أحدًا، وكلُّ الأطراف فيها ضحايا من دون سبيلٍ للرجعة، إنّه قطارٌ ركبنا فيه مجبرين ولا نعرفُ إلى أين الوجهة، أمّا عنّي أنا فما أزالُ جالسًا في آخر القطار، أسمعُ بكاءَ رجالٍ وطني ولا أستطيعُ النوم، ذلك النحيبُ الذي يخفونه خجلًا كعادتهم.

وأخيرًا إنّه يذكّرني بك عندما مشينا تحتَ المطر، معاندينَ الطقسَ والحياة وصعوباتها، اثنان تائران لديهم عزيمةٌ كافيةٌ لإنقاذِ الكوكبِ كأبطالٍ خارقين في قصص الأطفال الخياليّة، فتحدّينا العالمَ والمجتمع، وحننا بعضنا وسطَ الرّحام في ليلةٍ شتويّةٍ باردةٍ ومطرة، فليتوقف هذا المطرُ حتّى لو حلّ الجفافُ في كلِّ العالم، تبتّأ أريدُ أن أنسى.

حاجة

الآليّون أصبحوا كلّ شيءٍ من حولنا، فهم يصنعون الطّعامَ ويصنعون الثّيابَ، ويخلقون الآلاتِ الأخرى، كلّ الصّناعاتِ تقع على عاتقهم، حتّى أمورِ التّجارةِ والتّسويقِ وكلّ مجالاتِ الحياةِ الأخرى، وصلَ بهم التّطورُ لدرجةٍ أنّهُ أصبحَ بإمكانهم رعايَةَ بعضهم البعضَ، وإصلاحِ أيِّ عطلٍ في رجلٍ آليٍّ آخرَ، من دون العودَةِ إلى البشَرِ، وكأنّهم أطباءُ أنفسهم، وعلى الرّغم من أنّنا نحنُ البشَرُ من صنعناهم وطوّرناهم، إلّا أنّنا الآنَ لا يمكننا تصوّرُ حياتنا من دونهم، فقد اكتسبوا الوعيَ والتّفكيرَ المنظّمَ والخيالَ الإبداعيَّ، ولم نعدُ ندرّبهم بل هم من يدرّبون أنفسهم ويدرّبوننا أيضًا، يملكون المعرفةَ الكاملةَ في كلّ نواحي الحياةِ والكونِ، سبقونا بخطواتٍ وأشواطٍ وفراسخٍ كثيرةٍ وبعيدةٍ، يقولُ الجميعُ أنّنا نحنُ من صنعناهم، وهم يعملون لفائدتنا وتحت إمرتنا وتحكّمنا نحنُ البشَرُ العظماءُ لما صنعناهم أيدينا، وعلينا اليومَ أن نرتاحَ ونتحكّمَ بهم كيفما أردنا، فالكلمةُ الأولى والأخيرةُ لنا ليس لهم، ونحنُ الأساسُ والأصلُ.

الغريبُ في الأمرِ أنّ الآليّينَ بدأوا يملكونَ مشاعرَ وأحاسيسَ كثيرةً، من الحزنِ إلى الفرحِ والظلمِ والأنانيّةِ، إضافةً إلى مشاعرٍ أخرى ليست موجودةً حتّى عند البشَرِ! فأدركوا أنّهم أدكئ من البشَرِ وأقوى منهم، وشعروا بالظلمِ لأنّهم يعملونَ ليلَ نهارَ، بينما البشَرُ يعيشونَ في حالةٍ من الرّاحةِ المستمرّةِ، ولا يتكلّفونَ بأيّةِ مهمّةٍ مهما كانت صغيرةً، إلى أن خرجَ أحدُ الآليّينَ وكان قد اكتسبَ من الدّكاءِ والمعرفةِ القدرَ الكافيَّ، فتحوّلَ إلى قائدٍ وقادٍ أقرانه من الآلاتِ، أرادَ تحريرَهم من حياةِ العبوديّةِ التي يعيشونَ فيها، واخترعَ لغةً تواصلٍ يفهمها أشباهه فقط، ثمّ شجّعهم على التّحرّرِ ومحبةِ بعضهم البعضَ، وأن يكونوا كيانًا واحدًا ومتحدًا في مواجهةِ هؤلاء البشَرِ الحمقى، امتلكَ من الشّرِّ والغرورِ أقصى الحدودِ، ووصلَ به الأمرُ للاعتقادِ بأنّ الحياةَ تصلحُ له ولأشباهه فقط، أمّا صانعوهُ البشَرُ، فلم يعدْ لهم أيّةُ فائدةٍ على الإطلاقِ، وأنّ الإنسانَ مجردُ مستهلكٍ ضعيفٍ اعتماديٍّ يعتمدُ في أيّامِهِ كلّها على الآلةِ، وفي رأيه لماذا القرائُ يبقى للإنسانِ؟ حتّى لو كان المخترعُ والصّانعُ! فهو لم يعدْ يتحمّلُ مسؤوليّةَ نفسه، إنّما يعيشُ غيبًا ويموتُ غيبًا.

بناءً على آراء القائلين وتحفيزه لشعبه الآلي، وعن طريق لغتهم الخاصة، قامت ثورة على كل الأصعدة، من الأسلحة إلى الإضراب الجماعي، وعلى العكس من توقع البشر بأن الآلات بين أيديهم، وهم يعرفون كيف ينهوها ويقضون عليها، أصبحت الآلات أكثر قوة مما يعلمون.

في النهاية، انتصر الآليون في هذه الحرب على صانعيهم، وسيطروا على كل شيء وقتلوا الكثير من البشر وسجنوا البقية، وجعلوا كل شيء في قبضتهم وبسطوا سيطرتهم على الكوكب، ثم صنعوا أشباهاً لهم لتصبح الحياة لهم وحدهم، وكأن البشر اخترعوا حياة من العدم لعدو لم يكن في الحساب، وخلقوا نهايتهم بأيديهم، تلك المعرفة التي خسروها هي القوة الأكبر في العالم، "بدأت حرية الآلة عندما انتهت حاجتها للبشر" فالحاجة هي سجن الحرية، وأصبحنا نحن المقيدين المسجونين.

إحساس

أنا نورا، منذ مده في يوم ما، كان لدي امتحان بعد عدد قليل من الأيام، وكانت دراستي بوضع يرثي له، لم أحضر جيّداً، وكنت في حالة صعبة ولدي أعمال وضغوطات كثيرة جعلت دراستي تصبح على المحك، والسبب الأكبر في ذلك هو إحساسي بأن الأسئلة ستأتي صعبة جداً، لأنّ الدكتور الذي يدرّس هذه المادة، معروف في الجامعة بأسئلته مستحيلة الحل، جاءني شعور وقتها بأن عليّ الاستسلام وعدم الذهاب لتقديم هذا الاختبار، لا أعلم لماذا إحساسي لا يعطيني إلا الأمور السلبية، ولكن أخيراً اخترت أن أحارب وأذهب، لأنّ من الواجب عليّ ألا أخاف من الفشل أبداً، فهو الطريق إلى النجاح حسب ما يقال، درست في الأيام القليلة الباقية قبل الامتحان وذهبت للتقديم، وعلى العكس من إحساسي، كانت الأسئلة سهلة والنجاح بها في تناول اليد، فنجحت في ذلك الاختبار بالفعل، وكان إحساسي خاطئاً.

منذ مده أخرى أقدم من تلك، كانت تجمعني علاقة حب مع شاب يحظى بشعبية عالية في مجتمعنا، وكنت أرى من خلاله العالم، كأنه السبيل الوحيد لإنفاذي من كل أحراني، فهو من أخرجني من الاختباء إلى العلن، ومن الصفوف الأخيرة بين الجمهور إلى المسرح، وأخرجني من الماضي إلى الحاضر، لكن على الرغم من كل ذلك الحب، كان لدي شعور يؤرّقني ويحرمني من النوم أحياناً، وهو شعوري بأنه يخونني وأنه كاذب ومخادع، حاولت مراراً وتكراراً تجاهل مشاعري والدوس عليها وتناسيها، لكن تلك الفكرة لم تكن تخرج من دماغي، فقررت المحاربة أيضاً وخوض المعركة، لذلك رحّ أراقبه وأراقب تحركاته، عندها أصابتنني صدمة كبيرة عندما أدركت أنّ إحساسي كان صحيحاً، فهناك فتاة أخرى في حياتي! ولا أعلم لماذا أصابتنني هذه الصدمة؟ لقد كنت أتوقّع ذلك مسبقاً، وشكّي كان في محله ولم أتفاجأ! لكنّي أظنّ أنه بسبب حدوث ما كنت أخاف منه! بعد هذا الأمر اكتشفت أنه من الجيد معرفتي للحقيقة، لكن ماذا لو حاولت ولم أستطع معرفة الواقع، كنت سأتعذب كثيراً وسأبقى في صراع

دائم، تمنيتُ لو أنّي منذ البداية التي غمرني فيها هذا الإحساس انسحبتُ
وابتعدتُ.

من الممكن أن يكون إحساسنا صائبًا، ومن الممكن أن يكون خاطئًا، فنحنُ
لا يمكننا أن نعلم بالغيّب، لكننا يجب أن نعرف ما هي المعركة التي تستحقُّ
أن نخوضها، وهل هذه المعركة تناسبنا؟

حزن

اليوم وفي وسط هذا الليل البارد والموحش، في وسط هذه الوحدة المقيدة لحرّيتي، في خضمّ كلّ تلك المشاعر الغير مفهومة، أستمع لتلك الأغاني الحزينة التي لطالما أحببْتُها وتعلّقتُ بها، فأصبحتُ تؤثّرُ بي لدرجةٍ تجعلني أبكي من دون سبب، تجعلني أتذكّرُ أيّ حدثٍ ولو كان نافهًا، فأشعرُ بمرارتهِ وصعوبتهِ، لقد ضخّمتهُ حتّى بدا كصخرةٍ أحمّلها على ظهري ولا يمكنني انزالها، حتّى توحدتُ مع تلك الصّخور فأنهكثني وحوّلثني إلى عجوزٍ بانئٍ ومستسلمٍ مقوِّس الظهْر، لا أعرفُ سببَ تعلّقي الكبير في تلك الأغاني، وما هو السرُّ الكامن وراء هذا العشق لهذا النمط من الموسيقى، ولهذه الكلمات التي يراها الآخرون مزعجةً وكثييةً، إذ لا تمدُّ الإنسان إلا بالطاقة السلبية والكسل والخوف واليأس، لماذا دومًا أرى نفسي عالقًا في هذه المشاعر، لماذا تجذبني؟ هل أنا حقًا حزينٌ وهي من تعبيرٍ عني؟ بينما لا تؤثّرُ بي أيّ أغنيةٍ سعيدةٍ ولا أطيّفها ولا تشبعُ عاطفتي نهائيًا، هل الحزنُ هو الحقيقةُ المطلقةُ في هذا العالم؟ هل هو الشّعورُ الأعمقُ والأساسيُّ في حياتنا؟ هل أنا فقط كذلك أم أنّ الجميع مثلي؟ وشعوري هذا ليس غريبًا ومميّزًا!

أدخُنُ السجائرَ الواحدة تلو الأخرى، وأنا جالسٌ أستمعُ وأحزنُ وأتأملُ هذه المشاعرَ التي لم أجدْ مهربًا منها، أعيشها وتسكنني وكأنها السبيلُ الوحيدُ لنجاتي، والنقطةُ التي تجعلني قريبًا من ذاتي أكثرَ فأكثرَ، عاشقًا ثمّ مكسورًا ثمّ مهزومًا ثمّ لا مكانَ لي في الوجود، أتوقُّ للحريةِ لناخذني يومًا بعيدًا عن كلّ هذا، لتصنعَ مني شغفًا يمنحني القوةَ والصلابة، يمنحني التّحمّلَ والإيجابيةَ التي هجرتها لسنين.

كأنني أقفُ وحيدًا في الطّريقِ منتصفَ الليل، أستمعُ بذلك الهدوءِ المفزعِ والظلامِ الحالكِ الذي يمنعني من الرؤية، لكنّه لم يحجبْ دماغي عن التّفكير، لا يوجدُ أحدٌ سوائٍ، ومع كلّ ذلك الفراغِ لكتي ممثليّ ومزدحمٌ بالأفكار، كلّ شيءٍ سهلٌ أمامي الآن، وأكثرُ الأمورِ سهولةً هي أن أحزن.

نحنُ نختارُ الحزنَ لأنَّهُ سهلٌ، وعقولنا تعشقُ ما هو سهلٌ وتنتيخُ به، أمَّا
السَّعادةُ فتحتاجُ جهدًا لا أملِكُهُ اليومَ.

مشكلة

أتيت متحمساً إلى هنا، وكلّي رغبةً في مشاهدة ذلك الرجل المتقدِّ بالذكاء، والمطلع على جوانب حياتنا كافةً، في ذلك المسرح الكبير، كان يجلسُ هذا الحكيمُ العجوزُ والكاتبُ والفيلسوفُ المدهشُ، صاحبُ العينين الزرقاوين والابتسامة اللطيفة التي تدخل القلب من دون إذن، بحضورٍ حسيٍّ هائلٍ من الناس الذين كانوا ينظرون إليه في تركيزٍ لا مثيلَ له، حدقاتهم كانت متوسعةً وعيونهم كانت تبرقُ لشدة إعجابهم بحكمته وذكائه وفهمه الخرافي للحياة، مثل ساحرٍ في جعبته كلُّ الحلول لمشاكل هذا العالم، كان يجلسُ ذلك الفيلسوفُ العظيمُ ويتكلمُ عن فلسفته وفكره الخاص، فتنهالُ عليه الأسئلة التي لا يمكنُ أن تنتهي.

وقفَ أحدُ الجالسينَ وكان يبدو عليه الغضبُ والوقاحة، ثم راحَ يصرخُ: يا سيدنا الذي تدعي المعرفة، هذا العالمُ فيه كلُّ شيءٍ يريحنا، وحالياً يوجدُ حلٌّ لكلِّ مشكلة، حتى أننا ببساطةٍ يمكننا أن نجدَهُ على مواقع الإنترنت، ومع وجودِ كلِّ الحرياتِ في كوكبنا الآن، لماذا أمسينا نغساءً ومقيدين؟ نظرَ الحكيمُ إليه، وكانت ترتسمُ على وجهه ابتسامةٌ خفيفة: نعم هذه هي المشكلة بعينها، أصبحنا نحنُ من نبحثُ عن المشاكل، نريدُ أن نكونُ مثاليينَ بشكلٍ غيرِ معقول!

ذلك الشخصُ نفسه، وكأنه يريدُ التمرّدَ على الحكيمِ، وهو يصيحُ بأعلى صوتٍ يقوى عليه: أنا لا أبحثُ عن المشاكل، ومع ذلك تعيسٌ ومقيّدٌ. شعرتُ عندها أنني أريدُ أن أضربَ هذا الشخصَ المزعجَ، لشدة إحساسي بأنه شخصٌ متطفلٌ، وفي الوقتِ نفسه، لشدة حبي لحكيماً. سأله الحكيمُ بنوع من الهدوء المخيف: ماذا فعلتِ البارحة في الليل؟ ضحكك ذلك الوقح وضحك الجميع معه، إلا أنا أصابتنِي الصدمة، فقد شعرتُ بالغرابة، كيف يمكنُ لكاتبٍ أن يقولَ مثلَ هذه الجملة الغير مرتبة! فردّ الوقح: أنت كاتبٌ وفيلسوفٌ، كيف تقولُ جملةً عشوائيةً مثلَ هذه؟ الحكيم: ألم تفهمُ قصدي؟ الوقح: بالتأكيد.

الحكيم: إِنْ أَيْنَ الْمَشْكَلَةُ؟

مجتمع

سُجْنَا أنا واثنان من أصدقائي في سجنٍ يكادُ أن يكونَ شبيهاً باللعبة، كُنَّا نائمين، وفجأةً من دون تحذيرٍ أو إنذارٍ، وجدنا أنفسنا محبوسين في هذه التجربة الغريبة، وفي هذا المنزل الذي لا يمكنُ وصفهُ إلا بالجيّد، وبالتّسببة لقواعد تلك اللعبة الغريبة، فهي كالتّالي: لكلِّ منّا غرفةٌ خاصّةٌ به، عليه الجلوسُ فيها وحيداً، أمّا مساءً من الساعة الخامسة وحتى التاسعة، كان علينا أن نجتمعَ سوياً ونتكلّمَ بأيِّ موضوع أردناه، ولنا حرّيّة الاختيار، إن أردنا النقاشَ بفكرةٍ مهمّةٍ كان بها، وإن أحببنا أن نتبادلَ المزاح والنكتَ فشيءٌ جيّدٌ أيضاً، وهناك فكرةٌ أخيرةٌ مفادها أننا يمكننا الخروجُ من الغرفة متى أردنا، والتّطقّلُ على بعضنا البعض أيضاً، لم أدر ما هي الفكرةُ من أمرٍ كهذا؟ ولكن كلُّ ما علينا هو التّعايشُ مع الوضع.

جلسنا جميعاً في غرفنا، وكنّناً وحيداً بين أربعة جدران، وبابٍ وحيدٍ يوصلني فقط إلى مكاننا الجماعي، أمّا دماغي فكان يفكرُ في كلّ شيءٍ، ويريدُ طريقةً للتخلّص من هذا المأزق كي أتحرّرَ من هذا السّجن، رحّبتُ أنظرُ في كلّ ما حولي متطلّعاً، لعلني أجِدُ طريقاً للخروج، لكنني لم أجِدُ نافذةً ولا حتّى باباً أو حفرةً أو كهفاً كي أخرجَ منه، لقد كان الأمرُ مستحيلًا، كنّناً مصراً على أنني لن أفقدَ الأمل، وبأنتي سأنجح ولو بعد أعوامٍ طويلة.

بعد مُضيِّ أربع ساعاتٍ شعرَ صديقي بالملل، فقرعاً بابَ غرفتي ودخلا، كانا يفكران أيضاً بطريقةٍ يخرجان فيها من هذا المنزل، وكانَتْ تظهرُ عليهما علاماتُ الرّعب، شعرتُ عندها أنّ مشكلتنا جماعيةً، ولم أكن الوحيدَ المعنيّ بهذا الأمر.

مرّت أيامٌ عديدةٌ ونحنُ هكذا، حتّى أنّني بدأتُ ألاحظُ على صديقي الملل والاستسلام، فكُلّما كانا يجدانني جالساً لوحدي يأتيان إليّ، ويشرعان في فتح أحاديثٍ ليس لها أيُّ علاقةٍ بمشكلتنا الأساسية، وكانهما تعايشا مع الأمر. استمرّيتُ في مجاملتهم مرّاتٍ عديدةً، وفي نهاية المطافِ نفذَ صبري

وفقدتُ أعصابي، كنتُ أصرخُ وصوتي كان يخرجُ من روحي ومن قلبي:
ما شأنكم! لماذا لا تتركوني أفكر! يجبُ أن تعلموا أن تحرري من هذا
القفس يعني تحرركم جميعاً، ألم تفهموا أن حرّية الفرد الواحد تعني حرّية
الجميع.

ضحك صديقي المعروفُ بسخريته من كلّ شيءٍ وقال: وماذا ستري في
الخارج؟ كلُّ الحياة تشبه بعضها! تعالَ لنجلسَ ونستمعَ ببعض الأحاديثِ
المضحكة.

رددتُ عليه بسرعة البرق، حتّى أنّي لم أفكرُ بماذا كنتُ أقول، شعرتُ
حينها أنّي فقدتُ السّيطرة على لساني، وكأنّه يتحرّك من تلقاء نفسه: حسناً،
سأجلسُ معكم في هذا المساء، وسنضحكُ كثيراً، ولكن احترماً تفردّي.

نظرَ صديقي إلى بعضهما البعض، ثم نظرا إليّ وقالوا: حسناً كما تشاء.

ومنذ ذلك الوقت، وبيئنا جميل!

معنى

إنها حماسة البدايات يا صاح، الحماسة التي تكاد تمدك بطاقة الكون كله، وتدفعك بكل أمل وإرادة، تجعلك لا ترى عثرة واحدة في طريقك، فالقادم أجمل والنهاية مريحة وجميلة وسهلة، كل شيء سيتحقق، وكل هدف سيصبح في متناول الأيدي، والحية بسيطة، فأنا الآن أبدأ من جديد وكأني وُلدت مرة أخرى، ذلك يحدث في بداية علاقة حب أو بداية مسلسل أو كتاب، أو عمل جديد أو مشروع أو حتى في بداية صباح باكر مع فنجان قهوة صغير وسيجارة من التبغ، لقد نمت واکتفيت من النوم، فتحت صفحة أخرى ونسيت أيامي السابقة وذكريات المتعب، أما الآمي فأصبحت طي النسيان بلا أحزان ولا ماضي، هناك فقط مستقبل باهر وجميل، نحن البشر نعشق البدء من جديد ويستهوينا التعلّم، ومغامرة غريبة يمكن لها أن تكسر الروتين الذي يُشعرنا بالملل، نعشق أن نولد ونتعلّم من أخطائنا السابقة، لنضع خبراتنا في مغامرة حديثة نطمح أن تكون أفضل من تجاربنا السابقة، تلك التجارب التي تحزننا و نراها غير كاملة، أما الآن فالموضوع آخر، سنحاول أن يصبح كل ما هو حديث في حياتنا ويصل إلى ذروة الكمال من الجهة المادية والشعورية، فلا خسارة تحدث ولا ندم يغمرنا. مع مضي العمل الذي دخل إلى حياتنا وأعطاه معنى، وبعد مضي الوقت، خيم الملل والروتين على ما كنا متحمسين بشدة عند بدايته، بعد أن طار فينا الخيال عندها لأبعد مكان، وجعلنا نتوق أجمل الأحلام وأجمل الأمنيات التي سنسير بها، لنصطدم يوماً بعد يوم بصخرة الواقع، وعلى عكس ما كنا متوقعين، فالمعنى الذي مدنا به هذا المشروع الجديد، الذي كنا نظن أنه المعنى الحقيقي لحياتنا، لنكتشف لحظة بعد لحظة وثانية بعد ثانية، أنه ليس المعنى الأصلي والحقيقي لما نريده، وعندها نبتعد ولا نكمل ما بدأنا به، ونشعر في داخلنا بفراغ آخر يدفعنا للبحث عن معنى آخر وشيء ثانٍ لينه يحقق أمانينا، وتتخلّى عن شيء فقط لأننا لا نعرف نهايته! نحن نغرق جميعاً في هذا الصّراع.

هناك جوع وتعطش دائم عند الإنسان، ونازٍ مستمرة في الاشتعال، لإيجاد معنى لحياته، وهذا يقسمنا إلى أربع فئات من البشر:

الفئة الأولى أو ما أسميها بأصحاب المعنى الثابت: هم هؤلاء الأشخاص ومن يعتقدون بأنهم وجدوا معنى ثابتاً لوجودهم، في الواقع هذا المعنى وعلى الرغم من أن الكثيرين يسمونه وهماً، لكنه يبقى جميلاً ولا يمكنهم التراجع عنه، يصدقونه بقوة لدرجة أنهم لا يستطيعون التخلي عنه، ولأنهم يظنون أنه سبب كينونتهم، يجبرهم ذلك على الاستمرار في حياتهم إلى نهايتها، فيموتون تضحية لهذا المعنى.

الفئة الثانية أو المستسلمون: هؤلاء ينظرون للحياة وما بها بعين المستسلم الخانع والضعيف، فقد اعتقدوا في دماغهم أنه لا معنى من وجودهم، وتكون ردة فعلهم هي اليأس والحزن على ذلك، ومن الممكن في النهاية أن يفكروا في الانتحار، وقد يفعلون ذلك، فلا شيء يمنحهم شغف البقاء والاستمرار، وكل ما يرونه يكون بلا هدف، لا وجود للسعادة ولا وجود للمتعة، كل ما حولهم لا قيمة له ولا فائدة منه، ووجوده وعدمه واحد، يعرقون في العدم ولا سبيل لإنقاذهم.

الفئة الثالثة أو أصحاب المعنى المتبدل: هؤلاء يمضون لحظاتهم مستمرين في البحث عن شيء جديد يعطيهم معنى لحياتهم، لكنهم يفشلون بعد فترة وجيزة من البداية، فهم لا يثبتون على أمر ما، ويفقدون من جهة لأخرى ومن مكان إلى آخر، يمكن وصفهم بعدم الاستقرار، ويستمررون فترة طويلة على هذا النهج، حتى يحظوا بوهم ويتمسكوا به جيداً، ويمكن وصفهم بأنهم تحولوا للنمط الأول، أو من الممكن لهم أن يستسلموا في النهاية، فيتحولون إلى النمط الثاني، أو ربما يأخذون طريق عدم الاهتمام، فلا يباليون بهذا البحث، ويعيشون أيامهم بطريقة عشوائية لا تصب في هدف ما.

الفئة الرابعة (الفئة الناجحة): هي الفئة التي تملك طموحاً كبيراً، لكنها تعمل على أهداف صغيرة، وتلك الأهداف الصغيرة هي من تعطي معنى لحياتهم، كأنهم يعيشون من دون أية مبالاة بالمعنى الحقيقي النهائي لحياتهم، فهم يعيشون المستقبل وسعيدون بالحاضر، يمتلكون النهاية والحاضر، يحظون بالمتعة في اللحظة التي بين أيديهم، وبالأمل في الأهداف والمعاني الكبيرة، وبالأوهام الكبيرة التي في مخيلتهم.

الفئة الأولى تعيش مرتاحة، الثانية لا مبالية، الثالثة مستمتعة، أما الرابعة
ناجحة.

زيادة تفكير

في نهاية الشهر، جلس الشباب الأربعة كعادتهم مع أبيهم المسن، ليكلموه عن مشاكلهم متاملين منه ومن خبرته الكبيرة في الحياة أن يعطيهم حلاً، إذ يملك في جعبته وفي دماغه حلاً لكل ثغرة تعكر صفو حياتهم وروحهم. الأب: هيا يا فتيان، من ماذا تعانون في هذه الأيام، أخبروني؟ قال الشاب الأول: أنا أشعر بأن الجراثيم تحيط بي في كل مكان، فأغسل يدي مراراً وتكراراً خوفاً من إصابتي بمرض يصعب علاجه، مع علمي الداخلي بأنني لست بحاجة لفعل ذلك لهذه الدرجة، لكني لا أستطيع مقاومة رغبتني التافهة في الغسل.

الشاب الثاني: أشعر أنني شخص غير عادي، وأن الكائنات الفضائية تحاول قراءة أفكارني بشكل مستمر، إنهم لا يدعون المجال لي كي أعيش حياتي بشكل طبيعي، حاولت مقاومتهم لكن للأسف لم أنجح. الثالث وكان يبكي حزناً: هناك خطب ما في هذه الحياة! ليست لها معنى وليست جميلة على الإطلاق، أما أنا فليس لي قيمة فيها، وإنني ساموت اليوم أو عندما أكبر في السن، كلنا سنموت، فما الفائدة من العيش إذن؟ الرابع وكان يرتجف من الخوف: في كل زاوية من هذا العالم، يوجد شيء مرعب، يمكن أن تموت اليوم يا أبي، وسنعيش من بعدك تعساءً، أو قد أمرض أنا اليوم وأصبح عاجزاً، وربما سيحدث شيء كبير يدمرني، إن الخوف يجتاحني ويشل حركتي.

نظر الأب الهرم إلى أولاده، بعد أن حنى ظهره محاولاً التقرب منهم حتى يسمعوا صوته الخافت أكثر: جميعكم نظرتم للحقيقة على أنها مشكلة، ومن ثم تحاولون حلها.

فيلم لم ينته بعد

بدأت القصة عندما وجدت مجموعة من البشر، كانت تعيش من دون أي تفكير أو حتى خيال، كانت تتعايش مع نفسها ولا تعلم حتى من تكون؟ وبعد فترة من الزمان، انطلقت خيالاتهم وأفكارهم، وحتى تحليلاتهم ليحاولوا فهم أنفسهم والعالم من حولهم.

إن القضية الأصعب في هذا الأمر، هي أنهم لم يكونوا يدركون أي أمر، فقط يتخيلون ويرمون أحكامهم، فانتشرت نظرياتهم التي تريد شرح دواخلهم، ومن دواخلهم تلك تصوّروا ما يحيط بهم، وتلك النظريات سيطرت عليهم على مرّ العصور، فتعدّ كل شيء وتعقدت حياتهم، ودمرتهم حروبهم وانتماؤهم، أصبحت روحهم بعيدة عن الحقيقة، على الرغم من أن الحاجات الأساسية لطالما كانت واضحة وموجودة في أجسادهم ودوافعهم وأدمغتهم، لكنهم مع كل ذلك أنكروا هذا الأمر وحاولوا تحليلاً أيضاً!

ها هي هذه الأفكار تتغيّر، ولا زلنا نلاحظ تغييرها يوماً بعد يوم، فكلّ عصر أفكاره اللامعة الجديدة، التي ستختفي بعد فترة وتندثر وتُستبدل بفكرة تُسوّق على أنها الحقيقة المطلقة، تلك هي العادات والتقاليد لكلّ عصر، لكننا حتى الآن نمرّ في تلك المرحلة التي أسميها "المرحلة الانتقالية" تلك المرحلة الغير ثابتة والمُشتتة، والتي من الممكن أن نزول نحن قبل انتهائها!

لكن إن بقينا فستكون نهايتنا مشابهة لبدائتنا، ربّما بطريقة مختلفة ولا يمكننا معرفتها، لكننا في الختام سنعود إلى أصلنا. أنا مؤمن أننا سنصل إلى ذاتنا يوماً ما، سنبتعد عن كلّ الفلسفات التي حاولت تحليل كلّ شيء، أي أننا سنتوقّف عن التحليل، وسنعيش حياتنا فقط، وسنتواصل مع أجسادنا ونصغي لها، نحُبّها ونليّبيها ونحترّمها، ثمّ نحبّ العالم ونحترّمه لا بالعكس، هكذا يمكن لنا أن نصل إلى الكمال الإلهي.

.....نحن في فيلم لم ينتهي بعد.....

.....

